ابتكار قصة سيف

بحث

تحليل

ادب

علم

الملازم محفوظ تاريخ

سنة ١٣٥٢ هجرية

اهداء الرواية

إلى روح المرحوم والدي أهدي قصتي هذه ، تلك الروح الحية الخالدة التي أشعر تمام الشعور بوجودها بجواري وبحوماتها حول مكاني وبقبولها هديتي . وأزيد على ذلك بأنني موقن بشكرها وبتمنياتها الطيبة لي رغماً عن أن هذا الاحساس ليس مما اعتدنا ان نعهده ونفهمه

وانني لمستطيع القول مما تقدم بأن القصة لن تكون مبهمة غامضة على القارئات والقراء وخاصة على الشباب منهم المتوقد الذهن التواق لمعرفة اسرار هذه الحياة الغريبة فأرجو أن يجدها الكل أمامه سهلة ممتعة اذ يكفي بذل القليل من العناية لدى قراءة المقدمة وأظن ذلك بالمستطاع وأنه سيكون فعلا . وعليه فأملي في ذلك عظيم ورجائي كبير وشكري جزيل ؟

محمد محفوظ

المقـــــــــدمة

وقديما قال (سافونا رولا) للناس ان الارض تدور فدارت على رأسه الدائرة ونكل به القوم فأحرقوه حيا لانه – فى عرفهم – قد تطق بالكفر . وجاء بالبهتان والزور – ثم دارت الايام دورتها وتطورت الاذهان وتبدلت العقول فقضى سناء العلم على ديجور الجهل ووضح صدق هذا الرجل فأعتدوه ضحية واعتبروه شهيدا.

وهكذا كان شأن العلماء والحكماء بل والانبياء والمرسلين فقد لاقوا فى الماضى الكثير من أذى بنى جنسهم عند ماحاولوا اصلاح أمورهم وهداية أخلاقهم .

أجل قابلهم قومهم بالنشر والضرر ولكن لم يلبث اولئك المفتونين بكل بال قديم من عقيدة أو علوم أن تعرفوا خطأهم وخطلهم فعادوا الى هداتهم تائبين معظمين مبجلين متبعين مبادءهم سائرين على درجهم تارة بعد مماتهم وطورا فى اخريات أيامهم .

ولست أبغى الاطناب فى هذا الباب فامامكم كتب الدين والتاريخ والادب والعلم كلها طافحة باخبار ذلك مما لايخفى أمره على الجميع .

والآن أقدم للقراء مبدأ الايمان بتناسخ الارواح وأنا فى مأمن من قتلهم أو حرقهم إياى لان العقول قد نضجت والاذهان قد تفتقت وما عاد الحرق أو التعذيب بنافع فى قتل المبادىء أو ابادة الافكار انما غاية الامر قد يلحقنى من بعض قصار العقول والافهام

ضحكة استهزاء أو ابتسامة سخرية لاتلبث أن تتلاشى متى تغلبت القوى المفكرة ورجحت كفة تحكيم العقل

لنذكر أولا شيئا عن الروح وعلاقتها بالجسم فنقول

ماجسم الانسان أو الحيوان أو أى كائن كان تدب فيه الحياة سوى آلة تامة التكوين تتشكل باشكال مختلفات طبقا لطبيعة خلقتها وما المحرك لهذه الاجسام إلا الروح التى تتشابه تمام التشابه مع الكهرباء

فكما ان الكهرباء تدير مختلف الآلات فان الروح تحرك الانسان الضعيف والقوى ، الغبى والذكى كلا حسب استعداد جسمه ومواهبه الجسدية أو العقلية وكذلك الحال في الحيوان والحشرات وبالاختصار فالروح واحدة للجميع . وان تلك الآلة التى سميناها بالانسان ليست إلا مجموعة مواد مركبة تحركها الحياة كما قدمنا وما الحياة ذاتها إلا تلك الروح التى تنعش ملايين الجواهر الفردة المكونة لتلك المجموعة فاذا تحطمت هذه الالة البشرية بفعل الموت فستبقى بعض هذه الجواهر المذكورة واذا بقيت منها ما كانت وظيفتها انعاش الذاكرة والاتصال بالمخ فيقول حينئذ المشتغلون بعلم المناجاة ـ وهو ليس موضوعنا ـ انه فى الامكان مناجاة أرواح بعض الموتى بالرغم من كون ذلك من أصعب الامور لان حجم تلك الجواهر أو الذرات أو الالكترونات انما هو صغير جدا لايمكن رؤيته با كبر مالدينا من المجاهر (والاسكوبات) وعليه فحياة

الانسان ليست فى الجسم الذى نراه بل هى فى ملايين الملايين من تلك الجواهر الفردة أو الذرات الدقيقة التى هى أقل من أصغر مايستطيع العلم كشفه أو رؤيته بالمكبرات فهذه الطوائف التى لاتعد من هذه الذرات أو الذريرات هى الجسم البشرى الذى عندما ينهار بالموت يبقى منه بعضها وقد يكون منها مايكفى لانعاش الذاكرة فيكون ذلك هو الخلود الذى منه اتفقت جميع الاديان والمذاهب على ان الروح خالدة باقية لاتموت بموت الجسم

فالروح كما تقدم لاتفنى بفناء المادة بل تبقى وتعيش مئات وآلاف السنين — فيا أيها الانسان العاقل المفكر أصغ الى قليلا — ان روحك من أمر ربك وهى خالدة أبدا وباقية بقاء سرمديا فليس الموت من صفاتها ولا الفناء من طبيعتها، أما الجسم ففان، فبالموت ينعم موت جسدك أما روحك فتصعد الى حيث هناؤها أو شقاؤها .ولكن أين يكون المقر لهذه الروح طوال هذه الاجيال والقرون لحين قيام الساعة . وكيف تسعد وكيف تشقى .

ان الروح لاتشعر إلا بالمشاعر المادية ولا تحس إلا بالحواس الجسدية لانها ماهى إلا روح ولولا ذلك لكان نصيبها الفناء ولكن ليس الفناء والموت من صفاتها كما أسلفنا .

فليس هناك طريق لاسعادها أو لاشقائها الا حلولها في أجسام مقدر لها حياة سعيدة أو تشقى فى أخرى محكوم عليها بالشقاء والآلام

وبما ان الناس تتوالد وتموت مع بقاء الروح حية خالدة كما أسلفنا فليس من المستبعد أو المستغرب أن تحل هذه الروح التى مات صاحبها فى جسم آخر جديد وهذا مانسميه بالتجسد الثانى وقد يتكرر ذلك فيكون التجسد الثالث والرابع وهكذا .

فيا أيها الانسان ان كنت ترغب أن تحل روحك بعد موتك فى جسم انسان سعيد فتحيا حياة سعيدة فاستغفر ربك وتب اليه والا فلسوف تشقى بحلول روحك بجسم انسان شقى أو ربما جسم حيوان أو حشرة وهذا هو العذاب الاليم .

فاعمل الصالح من العمل واجعل من شيمتك التواضع ولا تأنف أن تؤاكل الفقير أو تجالس الحقير ،ولا تقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، ولا تعذب روحا فستوضع فى حفرة ضيقة مظلمة وتمسى جيفة قذرة منتنة ويختلط جسمك الرطب بالتراب الى يوم العذاب ومن بعد موتك الى يوم البعث قد تتجسد روحك فى جسم حشرة حقيرة أو حيوان صغير فيطئك أولادك أو يعذبك احفادك، وقد يحبسون عنك طعامك وينكلون بك تنكيلا وانت تعرفهم وهم لايعرفون .وقد تتعرف على زوجتك الجميلة أم أولادك وقد مت عنها وتركتها ولكن للاسف هى لاتعرف من انت ولا يمكنك التفاهم واياها فليس لك لسان للتخاطب ولا دموع لتعبر بها عما يجول فى قلبك من حزن أليم وعذاب مبرح فتصرخ من فرط عذابك و ألمك

ولكنهم سرعان ما ينقضون على جسمك الرقيق بالهراوات فيقتلونك ويطرحون بجثتك في الخرائب والطرقات وهكذا يكون أمرك .

وقد يتكرر ويتنوع ذلك مع مرور الزمن الى ان يكشف الله عنك العذاب .

وقد يموت الرجل وابنه في بطن أمه علقة ليس بها الروح فما يولد هذا الطفل ويشب حتى تراه يقلد ما كان يفعله أباه في حياته ويشابهه في بعض أعماله وافعاله وحركاته وسكناته وهو لم ير ذلك الوالد . أليس هذا يتعلق بالروح ؟ أليس لتكوين هذا الطفل وذرات جسمه صلة بتكوين وذرات ذلك الاب الذي انهار جسمه بالموت ودفن وانطوى تحت التراب ؟ .

ألا يطرأ احيانا على بعض اصحاب العقول النيره من الناس ذكريات غريبة وخيالات مبهمة أو يمرون على امكنة فيخال اليهم انهم عرفوها ووطأوها من قبل بينما هم لم يسمعوا بخبرها ؟ ألا تراهم اذا بلغ احيانا آذانهم لحن من الالحان تثور عواطفهم ويسبح بهم خيالهم الى عوالم أخرى غير منظورة أو معروفة ؟ اليست هذه كلها حقائق يمكن لبعض الناس فهمها وادراك كنهها ولو بدت صعبة معقدة امام الاخرين .

اني ماقصدت بهذه المقدمة التوسع في هذا العلم الجليل ولا نشر مبادئه قبل ان امهد لها السبيل وانما الغرض اعطاء فكرة صغيرة حتى يمكن للقارئات والقراء فهم القصة فيحكمون على مبدئها ومؤلفها ؟

المؤلف

الفصل الاول

كانت أروقة القصر وبهوه الكبير مزينة منسقة وقد زادت أنواره وصفت أصص أزهاره ورتبت قطع آثاثه فى أركانه بحالة مناسبة ،وانتشر المدعوون بين أرجائه هنا وهناك وقد ارتدى الرجال منهم أردية السهرة الأنيقة ، وتدثرت السيدات أجل ما لديهن من الثياب الرشيقة ،وتحلين بأفخر ما اقتنينه من الحلى وأثمن ما امتلكنه من الجواهر . فكان البعض يرقص فى البهو على نغمات (السينفونيك) بينما فضل الآخر الاعتزال والتسار فى الممرات أو التمشى وتجاذب أطراف الحديث في حديقة القصر الغناء وقد ملأتها وزانتها عناقيد زهرات البندقية الضئيلة الانوار المدلاة بين أفانين الاشجار .

أخذ الداعيان الكريمان المستر والمسز (وارنر) يطوفان بين ضيوفهما كل بدوره فيلاطفان هذا ويضاحكان ذاك أو تلك ويباسطان الجميع وجلهم من طبقتهما فكان بينهم اكبر من وجد فى مدينة نيويورك من ملوك المال وجلاوزة الصناعات والمتاجر .

استمر القوم في مسائهم هذا وهم فى بشر ومسرة الى أن مضى من الليل بعضه فتفقد المستر وارنر ابنته بين ضيوفه فما وجدها .

فاستقصى خبرها حتى الفاها وقد جلست بمعزل فى الشرفة المطلة على حديقة القصر تنظر الى سكون الافق وتتعجب كلما ارتفع من حين لآخر صدى الضحكات العذبة المنبعثة من بين مماشى الحديقة الفسيحة ومن تحت أشجارها الوارفة . اتكأت سوزان وارنر على مقعدها تراقب هذا الهدوء الشامل وقد فضلته على ضجة الاروقة وعجيج البهو . فعاتب المستر وارنر ابنته سوزان على ذلك ، وكيف لا يعاتبها ولم تك تلك الحفلة الا لأنها قد أتمت فى ليلتها تلك العقد الثامن عشر من سنى حياتها .

فأصلحت سوزان من خطئها بأن دخلت البهو وشاركت والديها فى مهمتهما حتى انتصف الليل وانتهى الحفل وتفرق الكل وهم شاكرون داعون لسوزان بالهناء وطول البقاء .

مضى يومان على هذه الحفلة استراح فى خلالها أهل القصر من الجهود التى بذلوها فيها حتى كانت درة حفلات ذلك الموسم وحديث سمر المحافل والمجامع . فاختلى المستر وارنر وهو رجل طيب القلب كريم ، واسع الصدر سليمه ، طويل القامة ، كبير الهامة ، لا تفارقه الابتسامة رغم أنه قد أتم الستين من عمره — أقول اختلى المستر وارنر بزوجه المسز وارنر وهى سيدة فضلى تصغر زوجها بسنوات ثلاث ولكن لا تزال ترى على وجهها مسحة من جمال مضى وفى عينيها أثر من سحر انقضى — فدار بينهما حديث خافت عن أيام

صباها الذى ولى ولن يعود وكيف أن الله لم يرزقهما مولودا فيرث أملاكهما الواسعة وأموالها المكدسة فاضطرا الى تبنى سوزان تلك المجهولة المولد وقد عثرا بها وهى رضيعة بريئة فى ملجأ للأطفال بمدينة بوستن فراقهما ما عليها من صحة وجمال وتوسما فيها حميد السجايا والخصال فنبتت فى رعايتهما وهى لا تعرف لها أبا شفوقا غير المستر وارنر ولا أما حنوناً غير السيدة مارجريت عقيلته — لقد اخفيا عنها بل وعن الجميع تلك الحقيقة فانعم بهذا من فعل حميد وأحسن به من عمل مجيد . ثم تدرج بهما الحديث فتناول أخلاق الفتاة وكيف أنها قد اكثرت أخيرا من الاسترسال فى التفكير وعشقت الهدوء وأحبت العزلة وكرهت الحياة العصرية الصاخبة — وما انتهى هذا الحديث حتى اشعل المستر وارنر سيجاره الكبير وترك زوجته تلاعب ببغاءها الاخضر وقصد سوزان فى غرفتها وكانت جالسة على مقعدها المستطيل وقد مدت ساقيها وهى تطالع فى كتاب يدعى (فاذرنايل) وقد طبعت على غلافه صورة لأبى الهول وأهرامه ثم ما لبثت أن ألقت هذا الكتاب بجانبها وحدثت نفسها وهى تتنهد قائلة .

(أنى لى أن أشاهد هذه البلاد — بلاد السحر والجمال — بلاد الشمس المشرقة والاشجار المورقة حيث الزهور والعطور ، والبهجة

والسرور - أنى لأشعر نحو تلك البلاد بشوق - وأحن لذلك الشرق - موطن الشعر والخيال والروح)

دخل عليها المستر وارنر وهى على حالها هذا فرت خدها وداعب شعرها الذهبي الجميل وهو يقول لها بامها

(ما رأيك يا سوزان وقد اتفقنا على أن نفرح الى المصيف بعد أسبوع على الاكثر)

فتهلل وجه سوزان فرحا وقبلت والدها سرورا ووضعت كتابها على المنضدة وهى تلقى نظرة من نافذة غرفتها الى الفضاء الواسع الذى تطل عليه .

وحقا لم يمض الاسبوع حتى كانت أسرة وارنر فى مصيفها على شاطىء (اللوخ إيلاند) البديع حيث كانت تمرح فيه جماعات الفتيان والفتيات من أبناء اكبر الاسر وهم بملابس السباحة فكانوا تارة يغترفون الرمال فى ظل المظلات الكبيرة المزركشة المنتشرة على الشاطىء وطورا يسبحون ويتراشقون بالكرة فى الماء وهم يضجون ويتهللون .

أما سوزان فكانت قبلة الانظار فى هذا المصيف . كيف لا وقد تم نموها فى عامها وبرز نهداها وتورد خداها فكانت آية ملاحة ورشاقة .

وقد أقدم اكثر الشبان على خطب ودها فكان الاخفاق نصيبهم

والخيبة ما كلهم إذ أعرضت عنهم ونأت بجانبها وولتهم ظهرها وقضت وقتها سابحة فى اليم لشغفها وتعلقها بهذه الرياضة - الى أن أتى يوم صفا أديمه واعتدل نسيمه . فنزلت كعادتها الى البحر لأجل رياضتها المحبوبة وما زالت تمارسها فيضحك لها الماء ويداعبها طيب الهواء حتى تدرجت الى الداخل على مسافة من الشاطىء اعتادت الوصول اليها فى مثل هذه الايام المشرقة — وإذا بسحابة سوداء قاتمة قد ظهرت فجأة فى الأفق فأظلم الجو وبرد الريح ولعبت الامواج وما هى إلا برهة يسيرة حتى هاج المحيط وماج فجمع السابحون والسابحات الى الشاطىء يلتمسون اكواخهم فانجهت سوزان صوب البر وهى تغالب الامواج المتزايدة وتكافح ذلك المحيط الغاضب الصاخب — ولكن أنى لها سرعة الوصول الى الشاطىء وهى على مسافة لا تزال بعيدة عنه وقد كل ساعداها وبدأ جسمها الرطب يعجز عن امكان اتمام المرحلة فأرسلت صرخة فى الجو طالبة الغوث والعون من فتيان الشاطىء وأبطال المصيف — ولكن أين كان هؤلاء — فقد تفرقوا وتشتتوا وتواروا أمام غضب الطبيعة .

أما مراقب الشاطىء وهو رجل كهل فقد حاول النزول للأخذ بيدها إلا أنه لم يلبث ان تراجع القهقرى أمام هذه الامواج الغاضبة.

رأى المستر وادنز وزوجه الموقف فكاد يجن الرجل من فرط حيرته وتمنى لو عاد اليه شبابه لحظة وقوى على السباحة حتى ينقذها

وصرخت المسز وارنر صراخا يفتت الاكباد وهى يائسة وأيقن الجميع هلاكها .

هنا تجلت قدرة الله فبرز فتى من بين الاكواخ وخلع ما تيسر له خلعه من ثيابه وزج بنفسه فى هذه اللجة المتلاطمة وما زال يصارع الموج ويغالب هذا الخضم حتى وصل الى الفتاة فى اللحظة المناسبة فأمسك بشعرها وجذبها خلفه وما زال بها حتى أوصلها الشاطىء وقد نالت منه الامواج الشىء الكثير ، وما كادا يتلمسان اليابسة حتى سقطا مغشيا عليهما فأسرع الناس الى اسعافهما حتى عادت اليهما الحياة وبدأت الحرارة تدب فى جسميهما فنقلهما المستر وارنر الى داره بالمصيف حيث وافاهما طبيب الاسرة بعقاقيره ومنعشاته .

وما مضت ساعة من الزمن حتى كان الفتى والفتاة على حالة حسنة وقد أقبل الوالدان على فتاتهما عناقا وتقبيلا وعلى الفتى حمدا وشكراً مما أخجله فطلب من مضيفه قبعته للخروج ولكن أبى الوالدان عليه هذا الحق واجتمع الكل وقد بدا عليهم البشر بغرفة سوزان وقد تمددت على سريرها بغية الراحة من فرط ما ألم بها من تعب ودارت بينهم الاحاديث السارة ومنها عرفوا بأن الفتى ليس بأمريكى بل أنه من شبان مصر ويدعى (فؤاد) وقد قدم (اللونج إيلاند) متنزها مع قريب له بالمفوضية المصرية بواشنطون وذلك

بعد ان انتهى من دروسه العليا بجامعة شيكاغو ونيله الاجازة وانه يقضي وقتا حتى يحين ميعاد سفره الى مصر .

تردد الفتى على دار القوم بضعة أيام قبل عودتهم الى قصرهم بنيويورك فاكل على مائدة آل وارنر مرات . وشرب الشاى معهم دفعات . وتنزه مع سوزان أوقات . ولعب معها ساعات . وانفرد بها سويعات . حتى زادت روابط الفتهما وديت بينها روح جديدة هى روح العطف زادها كر الايام فكانت حبا فغراما فهياما ثم عزما واتفاقا على الزواج .

كانت هذه النتيجة المنتظره لكل مانقدم من الحوادث اذا نظرنا الى ميول الفتاة وشعورها

علم والد الفتاة بالامر فعظم عليه ولكنه لم يسعه الا الموافقة ثم التسليم وهو على مضض .

بادر فؤاد الى والده فابرق اليه ينبئه بامر خطوبته فدهش . الا أنه لما علم بالموضوع من واشنطون لم يلبث أيضا أن رضخ فارسل بالموافقة .

عقد القران بمنزل العروس بعد ان قامت المفوضية بكل ماهو لازم فى مثل هذه الحالات وقد تولى صيغة العقد أمامها الشيخ .

كانت حفلة بسيطة صغيرة كطالب الجميع سافر أثرها العروسان السعيدان لمصر لاستقبال حياة جديدة . فاستقلا الباخرة

والقوم بين عاملين . عامل الفرح من أمر الزواج وعامل التأثر من الفراق . الى أن دوى صفير الباخرة وتحركت الاتها فقضى ذلك على الموقف وانتهى الامر

ولا حاجة للاسهاب فى وصف الباخرة وطريقة سفر العروسين أو هدوء البحر وهياجه أو مادار بينهما من الاحاديث اذ ان ذلك تحويه كل قصة ورواية بل نقتضب كل هذا ونعود الى مصر حيث والد فتانا فؤاد فنجده يقطن بمفرده في دار فسيحة البناء واسعة الأرجاء تحوطها حديقة كبيرة غناء تقع على الساحل الغربى بمدينة الاسكندرية وعلى مسافة منها وقد أحاطها البحر من أمامها وبحيرة مريوط على مقربة من خلفها وهى ترسل اليها من حين لآخر باسراب البط والقطا فيحط على أسوارها فيحسن من شكلها ويزيد من رونقها وبهائها .

جلس رب الدار على مقعده فى مدخل قصره وهو يرسل البصر على المحيط الازرق أمامه وهو يقول لنفسه (الآن تم زواج فؤاد وصار رجلا وعما قريب سيصبح رب أسرة فيحق لى أن أخبره بذلك السر الرهيب الذى كتمته عنه زمنا ـ نعم واجب على أن أعرفه بأننى خاله ولست بأبيه كما كان يدعونى ولقد آن أن يدرك أن والده قد اختفى وانقطعت أخباره منذ سنين حتى أمسينا لا نعرف له مصيرا ـ أصار من أهل القبور ، أم لا يزال حيا يرزق ـ

لاشك أن فؤاد سيدهش لذلك وتأخذه هذه الحقيقة وسيلحقه بعض الغم ـ فالافضل أن أبقى هذا الموضوع الآن ولا أعكر صفو أيام زواجه الاولى)

قاربت الباخرة أن تصل فابرق فؤاد الى والده يبلغه فذهب على التو وما وافى الوقت المقصود حتى ظهرت الباخرة والقت مراسيها على الرصيف وأخذ رجال الشحنة والصحة والرسوم يقوم كل بواجبه المعلوم حتى اذا ما انتهت هذه الاجراءات صعد الوالد الباخرة فالتقى بابنه فؤاد فعانقه عناق الأب الشفوق ، وأقبل على عروسه مسلما مرحبا ونزل الجميع الى البر وقد علاهم السرور فاستقلوا سيارة الى قصرهم ولا تسل عن البهجة التى عمت الجميع وبخاصة سوزان التى خالت كل مايحيطها ووقع على نظرها كانه يضحك لها ويرحب بقدومها .

وصلوا الى الدار وكانت تعج بالزوار والمهنئين واقيمت الحفلات ومدت المآدب وأقبل الأقارب والأصدقاء والاعزاء من كل فج وصوب لتقديم التهانى والقيام بواجب التبريك .

مضت أيام على فؤاد وعروسه الامريكية الجميلة وهما على أسعد حال يتمتعان بكل ضرب من ضروب اللهو والسرور فكانت أوقاتهما تفيض سعادة وتترع هناء الى أن بكر فؤاد ذات يوم الى البحر أثناء نوم أهل القصر فودع والده فى نومته بنظرة وعروسه

فى اغفائها بقبلة وأسرع الى نجمته الزرقاء وهى كوثره (زورقه) المفضل وقد قال لخادمه انه رأى حلما أزعجه فأقلق نومه وانه ذاهب الى رحلة فى البحر لايعرف مداها فى هذا الفجر

وفى ضحى اليوم استغرب الوالد وسوزان من أمر فؤاد فتناولا طعام افطارهما بسكون وما انتهيا منه حتى بدأت سوزان تفكر فى سر هذه الرحلة الفجائية وكان شعورها نحوها غريبا . وأدرك الوالد مايجول بخاطرها وأراد أن يحول تيار فكرها بالرغم من انشغال باله هو أيضا فعرض عليها أن ترافقه الى أقبية القصر وهى أعز شىء لديه بعد فؤاد وعروسه .

وكانت سوزان قد سمعت عن محتوياتها التاريخية التى ترجع الى قرون مضت ، ولكن كان قد ألهاها عنها حلاوة الحب وميعة الشباب فلم تفكر من قبل اليوم أن تدع الخروج مع زوجها للصيد أو التريض جانبا وتقصد الى مثل هذه الاماكنة الرطبة ، ولكن كان هذا الصباح انسب وقت لرؤية هذه الاقبية فلاقت الدعوى هوى فى نفسها ونزلا اليها

هال سوزان مارأته من نفيس الاسلحة القديمة والدروع المذهبة والصوره المعلقة وكان الوالد يشرح لها بانكليزية لابأس بها عن محتوياتها وهو يتيه فخرا ـ فيقول لها (هذا درع جدى الرابع وذلك قوس جدى السابع) وحقا كان غريبا من هذه الاسرة الاحتفاظ

بكل هذه المخلفات متوارثة اياها صائنتها مثل هذه الصيانة .

ومازالا ينتقلان من قبولآخر حتى استقر نظرهما على سيف بديع الصنع فاقتربت منه سوزان معجبة به ولكن الوالد علا وجهه الاضطراب قليلا لدى رؤيته وتمتم ببعض كلمات بالعربية لم تفهمها سوزان مما زاد من فضولها فسألته الفتاة عن هذا السيف فحدق فيه قليلا بينما وقع بصرها الزائغ فى هذه المحتويات على صورة زيتية معلقة فوق ذلك السيف ومابينتها حتى القتها لضابط عربى فى الزى القديم تشبه ملامح وجه حماها تمام الشبه وقد كتب اسفلها بالعربية عبارة طلبت من حماها أن ينقلها لها الى الانكليزية وهذة ترجمتها (هذه صورة الضابط حسن بن العباس ياور السلطان والذى كان له الشأن الأكبر فى البلاط وقدقتل نفسه بهذا السيف) فقالت سوزان وقد علت وجهها الكآبة (انه لشيء محزن - ولكن ألا ترى انه يشبهك ياأبتاه تمام الشبه) فقال لها (نعم يابنتى ان قصته مع هذا السيف المعلق امامك لهى قصة طويل عليك شرحها وقد حفظها والدى عن جدى عن جده وقصها على وما هذا الضابط الا جدقديم لى)

— فقالت سوزان وقد شوقها الامر (أرجوك أن تقصها على) فاجابها (انها لقصة مؤلمة يابنتى العزيزة ولسوف أقصها عليك فى وقت آخر) ثم أخذ بيدها الى خارج المكان وهو

راجم من الذكرى، وماوصلا الحديقة المشرفة على البحر حتى جلسا على أريكه فكان كل حديث سوزان يدور حول هذه القصة بينما لزم هو الصمت مما زاد شغفها وفضولها ، وبينما هو مطرق الرأس فى تفكيره غافلته سوزان وعادت الى تلك الاقبية حيث السيف فاطالت النظر اليه ثم انتزعته من مكانه ولكن تصادف أن أفلت منها البصر الى الصورة المعلقة فوقه فراعها منها مانخيلته فيها من أن صاحبها يحدقها ببصره محركا شفتيه فارتجفت واصطكت ركبتاها والقت السيف بارض القبو وهرولت الى حيث حماها فارتمت على الاريكة بجواره وقد عقد الرعب والفزع لسانها . وما رأى منها ذلك حتى جزع أشد الجزع ومازال بها يهدىء من روعها حتى اطمأنت لنفسها فقالت له (لقد أرعبتنى تلك الصورة وذلك السيف وقد القيته على الارض) فقال لها (وما ذهب بك اليهما بمفردك ـ وان قصتهما سوف ترعبك أكثر من ذلك اذا ماسمعتينها) فأجابته قائلة (اننى أريد سماع هذه القصة وأتوق شوقا لها فارجوك قصها على)

ـ وما زالت تلح وتلحف عليه حتى قبل أن يقصها عليها فقال :

(اسمعى يابنتى العزيزة ان قصة هذا السيف عجيبة وسأقصها عليك الآن فانصتى اليها ولا تحاولين مقاطعتى فيها حتى لا تخوننى الذاكرة) فوعدته بذلك فقال: ـ

الفصل الثانى

منذ ... سبعة قرون تقريبا ... في أواخر الدولة الفاطمية التى كانت تحكم مصر .. وفى يوم من أيام الصيف في ذلك الزمن . كان أهل مصر يحتفلون بعيد وفاء النيل وكان هذا عندهم بمثابة عيد قومى عظيم فكانت الاعلام خافقة فى كل مكان وواجهات مبانيهم البيضاء مزينة أجمل زينة وتبارت الموسيقات تعزف بأناشيدها الشجية بينما أخذت الاطفال تمرح بملابسها الجديدة ذات الالوان الزاهية. وكانت الرجال تسير زرافات وهم بالملابس البيضاء ، وتحليت النساء بحليهن الذهبية والفضية ولكنهن اعتزلن عن الرجال واشتركن فى العيد وهن محتجبات بنقابهن الكثيف وكان يطير فوق رؤوس الجميع الحمام الابيض الذى كان الاهلون يطلقون سراحه تفاؤلا بالسلام واليسر وتبركا بالخير والمن فى هذا العيد الدال على مبلغ وفاء أهل مصر لنيلهم منذ الابد واعترافهم بجميله عليهم وهو منبع أرزاقهم وسبب حياتهم وان اختلفت دولهم وتباينت نحلهم. احتشدت الجموع صفوفا متراصة والبشر يعلو محياها منتظرة موكب السلطان وما هى الا لحظة حتى لمعت السيوف وصهلت الخيول فكان هذا إيذانا بقرب اقتراب الركب فأفسح رجال الشحنة الطريق وبعد هنيهة

فسمع القوم قرع الطبول وأصوات المزامير فهتف الهاتفون وصاح المنادون (السلطان ـ السلطان ـ الله ناصر السلطان)

ومرت مقدمة الموكب وقد جمعت الفرسان على اختلاف فصائلهم ومتنوع أعلامهم وتلاهم الرماة بنبالهم وأقواسهم ونشابهم وقد جر البعض خلفهم المنجنيقات ثم تبع هؤلاء الرجالة. وكانت تتقدم جميع هذه الفرق موسيقاها وأعلامها (وما كانت تلك الموسيقات الا نوعا من الطبل الكبير ذا الشكل المستطيل لايزال أشباهه بأيدى الهنود الحمر للآن وجملة من الابواق الطويلة التى كانت شائعة فى ذلك العصر) ثم مرت صفوف الجنود التى لا عدد لها ولا حصر وهم بملابسهم الزاهية الجميلة ومن يريد أن يتحقق جمال هذا الهندام ما عليه الا مشاهدة فصيلة من فصائل جنود الزواف الحديثة من أبناء المغرب الاقصى حيث يبالغ الفرنسيون فى المحافظة على هذه الازياء القديمة لامر يتوهمونه وهو انه اذا لبست هؤلاء الجنود الملابس الافرنكية تشبهوا بهم وساووهم فى مراتبهم وما كانوا يتوقعون أن هذا اللباس كان اكبر مساعد لهؤلاء الجنود البواسل على الحركة فى الحرب العالمية الكبرى لانسجامه عليهم وموافقته لاجسادهم فلقوا النصر ونالوا تقدير الجميع وكانوا برشاقتهم وخفة حركاتهم مضربا للأمثال .

ثم سار بعد ذلك رجال القضاء فالمهندسون بملابسهم الطويلة

ذات الرمانات المدلاة من الكتف ثم مرت زمرة من كل أهل حرفة وصناعه يتقدم كل واحدة منها شيخها وكبيرها ويحيط الكل من الجانبين صفان من رجال الشرطة بملابسهم الحمراء الصافية ثم ظهر الحرس الخاص ثم السلطان تحيط به حاشيته وهو ممتط جواده العالي الاشهب وعلى يساره في قليل من الخلف وزيره الخطيب الصالح ويتبع السلطان فرسانه وأعوانه وحملة أعلامه ورياته وما رفع نظر الشعب على السلطان حتى كاد الهتاف يصم الآذان وقد صدر من قلوب خالصة أسرها ما كساه الله وجه السلطان من ظل من الهيبة والوقار وما زانه به من لحية ناصعة البياض وكانت نظرات عينيه تدل على حزم وبأس وافعاله واعماله تكن عن تقى وزهد فعرفت الامة ان سلطانها لا يفكر الا في صالحها ولا يعيش الا لراحتها فكان خليقا بها ان تقابل سلطانها بهذه الحفاوة وهذا الترحيب البالغين حد الوصف الدالان على ما تكنه قلوبها من المحبة والاخلاص لهذا السلطان العادل .

سار الموكب بهذه الجلال حتى وصل الى القصر السلطاني فتفرقت تلك الجماهير الى منتزهات المدينة وحدائقها حيث الزهور والرياحين لتخلع عنها عاما انقضى بخيره وشره وتستقبل موسما جديدا وهي في بهجة وحبور .

وصل السلطان الى القصر فانتهى مهرجان وابتدأ آخر فى الايوان وهو المكان المعتاد اقامته فيه فى مثل هذا الاوان من كل عام وكان يجمع حكام البلاد وضباطها وعلماءها وكل ذى حيثية ومقام . فجلس السلطان على اريكته على ارتفاع بضع درجات من أرض تلك القاعة الكبرى ذات السقف العالى والاعمدة الرخامية المتقابلة وقد ظللت الاريكة خمائل من القطيفة المذهبة وجلس الى يمينه لاسفل وزيره (الصالح) وهو رجل نحيل الجسم مصفر الوجه باد على عينيه أثر من التعب لفرط انكباب صاحبهما على التفكير فى صالح الدولة والعمل لجهد فى ضبط شئونها وقد شاب شعر رأسه وبرزت وجنتاه .

ووقف الى يسار السلطان لاسفل الياور المقرب (حسن) — ولما اكتمل المحفل على هذا النظام استأذن فى الدخول كبير المنجمين كما هى العادة فى هذا العيد . وقد حضر ليقول نبوآته عن العام المقبل وكان أمره لايتعدى الفكاهة فسمح السلطان له وهو يقول (كذب المنجمون ولو صدقوا — تقدم وهات ماعندك لهذا العام) فتقدم ذلك المنجم البشع المنظر حتى صار على مقربة من السلطان ثم سجد وما زال كذلك حتى أمره السلطان بالنهوض فاستقام وأخرج من جعبته عصا قصيرة وقنينة صنع بها نارا ثم أدار فيهما البخور فساد الصمت وقد انطلق المنجم يقول بصوته الاجش الرهيب أدعيته

ورطانته ثم اعتدل فى جلسته وقد حجبه الدخان الازرق الملون الكثيف وقال

(أيها السلطان العادل أرى روحين بين أفراد شعبك تحاولان أن تمتزجا فاذا قدر لهما واجتمعتا فقد تم لمصر سؤددها ومجدها واذا افترقتا ولم توفقهما الظروف للتقارب فالويل لمصر اذ سيصيبها الذل والخنوع قرونا سبعة حتى تعودان للظهور فى العالم مرة أخرى لاتمام محاولتهما التى اذا تمت فستستعيد مصر مجدها ثانيا شيئا فشيئا والايتكرر ذلك على مدى الدهور فمن حظ مصر أيها السلطان العادل أن لاتفوت هذه الفرصة ويتم التوفيق لهاتين النفسين) فقال السلطان « ومن هما واين مكانهما حتى تقوم مصر بأسرها بهذا التوفيق » فقال المنجم (هنا تتجلى المقدرة الالهية فهذا مالا يعلمه الا الله وهو علام الغيوب وستكشفه لنا الايام) ثم عكف على مبخرته ثانيا وزادها بخورا وأفاويه

ثم استقام وقال (ضيأتيك فى أقرب آن ايها السلطان الآمن . أخبار ثلاثة . ولكنها لن تسرك فلاتجزع منها لانه سيزول شرها بأذن الله على يديك بحسن تدبيرك وحكيم تصرفك وعناية الله سبحانه وتعالى ورعايته) فقال السلطان وقد أطرق قليلا .

(نعم ياغراب البين . هات الثالثة الباقية) فزاد المنجم بخوره دفعة أخرى ثم استوى ولكن الهلع كان باديا على وجهه هذه المرة فقال بصوت اشبه بالعواء (أيها السلطان ان الثالثة لن تهمك ولن

تهم أي شخص آخر غير شخصي أنا » ثم سكت قليلا واستأنف قوله « استودعك الله أيها السلطان — استودع الله هذا الحفل الزاخر . وهذا النور الباهر وأن ليلتي لهي آخر عهدي بكم . فلن ترونى بعد اليوم . فسأذهب الى عالم اوسع مجالا لى من عالمكم هذا » ثم ضحك ضحكة مروعة غادر على اثرها المكان وقد ترك الجميع وراءه وهم ذاهلون الى ان افاق القوم على ارتفاع صوت الناى وضربات الدف والصنوج ودخول الراقصات .

كانت هذه الحوادث تجرى فى القصر بينما كانت تجرى جياد ثلاثة . تركبها فرسان ثلاثة في طارق ثلاث تجتمع فى ملتقى واحد فى باب المدينة — وما اجتمع هؤلاء الفرسان عند ملتقى هذه الطرق حتى وقفوا لحظة حيا فيها بعضهم بعضا بصمت وسكون ثم ساروا صوب القصر وما وصلوه حتى دخل أحد الحراس على السلطان وبعد أن قبل الارض أمامه كما كان متبعاً فى ذلك الوقت قال (مولاى السلطان العادل — بالباب ثلاث رسل يلحون فى الدخول) فصمت السلطان قليلا وقال (يؤذن لهم) فدخل ثلاثتهم وما اقتربوا من السلطان حتى وقفوا صفا واحداً وركعوا ثم استووا منتظرين أن يأذن لهم السلطان بالكلام فتفرس فيهم السلطان فاذا بأحدهم صليبي من الفرنجة والباقيان مصريان فأومأ الى الصليبي أن يتقدم فخطا للامام خطوتين ثم سجد للسلطان ثانيا ثم استوى وقدم الى السلطان مظروفا تسلمه

منه الياور (حسن) واوصله الى السلطان الذى فضه بيده وقرأ مافيه فتجهم وجهه ودفع بالمظروف الى وزيره ثم التفت بغضب الى الرسول قائلا (قل لمولاك الذى بعثك بهذا الينا اننا معشر الشرقيين نجير من استجارنا فلن يخيفنا تهديده باجتياح أملاكنا ولا يسوغ له أن يأخذ علينا بعمل نفر من البدو الخارجين عن سلطاننا وانه من واجبنا اذا ما لجأ الينا مظلوم أن نحميه من شر ظالمه وبئس الظالمون المعتدون أنتم . فليفعل مولاك مابدا له فنحن على اتم استعداد لملاقاته اذا حدثته نفسه بالخروج الينا والله ولينا وناصرنا وهو نعم النصير)

ثم أمر الرسول الثانى بالتقدم ففعل مثل الاول واذا به نذير من حاكم صعيد مصر العليا بان النيل قد طغى وزاد ، فاغرق البلاد ، وشتت العباد ، وهدد باقى الصعيد بشر مستطير ، فاستعاذ السلطان بالله من ذلك وأمر كبير المهندسين بان يأخذ مهندسيه وأعوانه ويغادر القصر على التو لتلك الجهات لعمل ما فيه دفع الضرور وزوال الخطر .

وأخيراً تقدم الرسول الثالث برسالته من أمير حلفا بان قبائل الجنوب ثارت على عماله ورفضت دفع الجزية وهى تزحف بجموع كثيفة للشمال مهددة اراضى مصر العليا فاغتم السلطان وأمر الرسل بالانصراف ثم فض المجلس فخرج الكل وهم واجمون يصبون اللعنات على ذلك المشعوذ الكريه المنظر النكر الصوت .

قصد السلطان غرفة المشاورة وكانت صغيرة بسيطة الاثاث قليلة التوسط بها منضدة كبيرة عليها ادوات للكتابة من مقالم ومحابر ولفائف من الاوراق وشمعدانان كبيران فضيان . وما دخلها حتى أمر ياوره حسن فوافاه بالصالح وزيره ومستشار أموره فجلسا معا يعملان الفكر بينما اوصدت عليهما أبواب الغرفة .

والآن نتركهما في خلوتهما ونجول بك قليلا في ارجاء هذا القصر وردهاته البالغة حد الرونق والبهاء . فمن أعمدة قدت من الرخام المرمر اللامع وقد صفت صفوفا متوازية لأبواب جميلة التركيب بديعة متناسقة الى نوافذ ومشربيات آية في الحسن ودقة الصنع وقد زينت سقوف حجره العديدة بالقباب ذات الاشكال الهندسية المختلفة المحلاة مناورها بالفسيفساء وقد تدلت من اعناقها القناديل النحاسية الملونة المزخرفة . تاهيك بالفرش الوثير والاثاث الكثير والعدد الكبير من الخصيان والندمان والاماء والارقاء والحراس والرقباء الى سائر ما احتوته امثال هذه القصور في تلك الدهور وفاتت العصور — الى ان تعثر بالامير (فائز) نجل السلطان وهو يسير بين غرف ذلك القصر وردهاته بعد ان اعياه المطاف في حدائقه المتجاورات المترامیات الاطراف كأنه يفتش عن احد غاب عنه او يتفقد شيئا فقد منه ولكنه ماوجد انسانا وما عثر على مفقود . فلعله كان يقتل وقته حتى يقطع الليل النهار وتولى الشمس الادبار .

وقد يعجب البعض لعدم اشراكنا هذا الامير في هذه الحفلات وهو ابن السلطان وولي عهده ووحيده المحبوب . ولكن من كان يعرف هذا الامير ويعلم ما صار اليه أمره في أواخر وقته من شرود غريب وميل للعزلة ومجانبة الناس يبطل عجبه ويعرف سببه

وما انقضى ذلك النهار واسدل الليل ستره على القصر ومن فيه حتى ارتدى الامير ثيابا بسيطة وامتطى احدى جياده وقم بمغادرة القصر . الا ان يداً امتدت من خلفه وأمسكت بالعنان فمنعت جواده عن السير . فالتفت الامير حانقا ليرى من ذا الذي اقدم على هذا الفعل فالقاه الياور حسن وقد انحنى أمامه باحترام قائلا له (أيها الامير الخطير ان والدك السلطان العادل أرسلني في طلبك للمثول بين يديه الآن) فبهت الامير ولولا ان الفاعل هذا الفعل والقائل هذا القول هو الياور حسن لما تأخر الامير عن الحاق أشد الاذى به . أما الياور حسن فلا يستطيع معه ذلك فقد رباه صغيراً وهو فوق ذلك يتمتع بثقة السلطان . فاضطر الامير إلى الاذعان مكرها ونزل عن جواده وقصد الى حيث السلطان وما بلغ بابه حتى خلع ثيابه وألقاه لأحد العبيد الوقوف بالباب فالتقفه منه وهو يدخل باب السلطان . انحنى الامير أمام والده بخشوع تام قائلا (الامر للسلطان العادل) فقال له السلطان (اجلس يا فائز) فجلس الامير الى المنصدة وهو ممتعض في نفسه فقال السلطان (خذ يافائز واقرأ) ودفع اليه

بالمطاريف الثلاثة واستمر يحدجه بنظره وهو يتصفحها وما أتم الامير قراءتها حتى علا وجهه الوجوم وظهرت على محياه امارات الجزع فقال له السلطان وقد لاحظ عليه ذلك (تشجع يافائز ، فليس هذا بوقت الجزع) ثم استطرد قائلا (أما النيل فلا أظن أمره بالغا الخطر الأشد — فقد ارسلت اليه بمن يقوم بالواجب نحوه فيكفينا الله شره ويدر علينا خيره . أما الصليبيون فانا كفيل بهم رابض هنا لهم — أما اهل الجنوب فسوف أسيرك اليهم على رأس حملة لردهم الى صوابهم)

فما سمع فائز بهذا حتى تململ قليلا وقال (سمعت كلامك أيها السلطان العادل — ولكني ارغب البقاء هنا لملاقاة الصليبيين فأقاتلهم الى ماشاء الله) فقاطعه السلطان قائلا بغضب (واذهب أنا لأهل الجنوب لتأديبهم) فأسرع الامير قائلا (أستغفر الله يا والدى السلطان انى ماقصدت ذلك بل وددت لو كفيتك مؤونة الصليبيين وهم أقوى من أولئك شكيمة وأشد بطشا — وان عملى هنا سيكون بارشادك . أما حملة الجنوب فيقودها غيرى ممن يثق فى اخلاصهم السلطان) فهدأت ثائرة السلطان قليلا لهذا الجواب وقال للامير بهدوء وقد قطب وجهه (اسمع يافائز — غداً تعتد وبعد الغد تبرح للجنوب متقلداً رئاسة الحملة فتأتينا بالنصر القريب باذن الله) ثم زالت عبوسة وجه السلطان وبدأت ابتسامته الابوية وهو يكمل

كلامه بقوله (عندئذ نحتفل بك البلاد أى احتفال وتكرمك غاية التكريم وازوجك بالاميرة « سهام » ربيبتى وقد ربيتها لتكون زوجة صالحة لك — تلك الاميرة التى حجبتها عنك طوال هذه المدة وأعددتها لك لهذا الغرض ولسوف تحل لك بعد قليل لأنى أظن انه قد آن أوان ذلك) فأجابه الامير (كن مطمئنا أيها السلطان العادل انى لفاعل ما أمرتنى به تارك ما نهيتنى عنه . أما أمر زواجى بالاميرة « سهام » فانى افضل ارجاء التفكير فيه الآن)

ثم انصرف الامير لحاله فامر السلطان وزيره ان يقوم للحال بأمر تدبير حملة الجنوب وان يبلغ اوامر العدة والاهبة للحرب . وما خرج الامير من حضرة السلطان حتى أسرع الى داره فاختطفه من العبد وارتداه وركب جواده وركله بمهمازه فنهب الارض نهبا فى طريقه الى حدائق النيلوفر .

الفصل الثالث

جد الامير بجواده كى يتدارك ما فاته من وقت وما ضاع من زمن فى جلسته مع أبيه فامعن فى جواده لكزاً وركلا الى ان اوصله حدائق النيلوفر تلك الجنات الفسيحة التى غرسها الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ثم تولاها خلفاؤه من بعده بالتحسين والتنسيق فكانت بهجة المدينة وزينتها

وما وصل الى تلك الحدائق حتى ترجل وربط جواده من عنانه بفرع ناتىء من جزع دوحة ضخمة هناك كان قد اعتاد أن يجعلها مربطا لجواده كلما زار الحديقة . وما اكثر ما كان ذلك . ثم سار مترجلا متخللا الاشجار يتلمس طريقه بين ممرات تلك الحدائق وخمائلها الى مكان ينشده مستضيئاً بنور القمر الذى بزغ فى الأفق فانار تلك الربوع الناضرة فزاد من جمالها وزادها حسنا وبهاء بأشعته البيضاء الهادئة .

طفق الامير يبحث هنا وهناك وهو خافق الفؤاد وقد أخذ الشك فى امكان العثور على ما يطلبه وينشده يتسرب اليه . فجعل ينادى بصوت مسموع : « جميلة » . . « جميلة — أين أنت ياجميلة » ولكن لم يسمعه احد ولم يلب نداءه الا صدى صوته .

فاضطربت حواسه واسرعت انفاسه وسار يفتش على غير هدى بين الاشجار وقد تخيل وجود جميلته بينها وذهب خياله لأكثر من ذلك حتى شعر بانفاسها حارة تهب على وجهه . ولكن سرعان ما خاب ظنه لما عثر على لفافة من الورق رآها على نور القمر موضوعة اسفل خميله اعتادا أن يتلاقيا تحت أغصانها المدلاة فالتقطها بيد مرتجفة وقرأ ماسطر عليها بغبار الميل (١) وكان الآتى :

(سيدى جميل ـ انى آسفة حقا لعدم مجيئك حتى هذا الوقت لسبب قد أجهله فمعذرة على عدم امكان البقاء لان اليوم كما لايخفاك عيد واخشى انتشار السوقة فى الطرق فيصعب على العودة الى الدار بمفردى ليلا ـ يمكننا التلاقى بكوخ (الصفا) عصر الغد ـ جميلة)

وما كاد ينتهى من قراءة الرسالة حتى اشتد أسفه لمعاكسة القدر إياه فى لقاء من يحب فى تلك الليلة المقمرة ـ ثم سار يخطى بطيئة نحو مربط جواده وقد لعبت بعقله مختلف الافكار وهاجت فى رأسه شتى الهواجس فناجى نفسه قائلا (ولكن ـ لاعدمك اللهم اذ لم القها الليلة . ولو كان تم ذلك لافتضح أمرى بلا شك وكنت ذا كرا

(١) أى الكحل وكان يقوم مقام القلم الرصاص المعروف فى وقتنا هذا وكان يستعمل قديما للكتابة بين المحبين ـ انتهى (المؤلف)

لها ماسيتم لى بعد الغد دون تروٍ فينكشف لها أمرى ويفتضح معها سرى قبل ان أهيء الامور لذلك وأستنبط قصة أرويها لها فتبعدنى عن موطن شكها وموضع شبهتها والا لأدركت بأننى لست (جميلا) المزعوم أبن ذلك التاجر الموهوم. ومتى عرفت حقيقة أمرى فستنفر منى بلا ريب وتدرك أننى خادع إياها وغير جاد في أقوالى وانى أحاول ان أنال منها أمرا أدا، فتهجرنى وتنبذنى وهنا الطامة الكبرى والبلاء الذى ليس بعده بلاء . اذ كيف أقوى على الحياة بدونها وهى سراجى المنير فيها ومنبع سعادتى ومصب آمالى وغدير حياتى وبحر هنائى) .

ثم قتل الورقة خصا وتلاوة على ضوء القمر الوادع إلى ان ساءل نفسه قائلا (قالت لى أنها من طبقة العامة وانها بنت بستانى الحديقة ولكنها كتبت لى فى رسالتها هذه تقول انها تخشى السوقة فى الطرقات ، ألا يمكن انها تخفى عنى حقيقتها كما أخفيها أنا عنها . واذا كان الامر كذلك فليس بمستبعد أن تكون بنت أحد الضباط او القضاة . ولكن مايهم هذا وقد أحبتها حبا ملك على عواطفى وحبس عنى إرادتى — فلا بد وان أحظى بها وأتزوج منها ولو سرا — مهما جلب على ذلك) — ثم ظهرت علامات الاصرار على أسارير وجهه فقال (الى الغد ياحبيبتى جميلة) .

وصل المربط فطوى كتابها فى صدره وقد قبله كثيرا ثم ركب

جواده وانطلق به الى القصر وهو يفكر أثناء الطريق فى أمر مفاتحتها بسفره هذا الطارىء

لم ينم الامير ليلته بل بات ساهدا فى فراشه يقلب أوجه الفكر ويستعرض ماقاله السلطان عن زواجه بالاميرة (سهام) وكيف يكون أمره فى ذلك ومن هى سهام هذه التى تشغل بال السلطان الى هذا الحد وكيف انه لايعرف عنها الشيء الكثير وانه لايشعر بأى ميل اليها ولم يرها أبدا فى حياته وانه مهما كان من أمرها فهى لا ولن تساوى جميلة بهجة فؤاده فى شيء .

ظلت هذه الهواجس تطرأ على مخيلته حتى أبعدت عن جفونه طيف الكرى . وما أصبح الصباح حتى غادر فراشه وهو مثقل الرأس مشتت الفكر خامد الجسم فقضى سحابة نهاره فى مقابلة القواد والضباط وبعض رجال الدولة واطلع على الكثير من الخرائط والتقارير لعدة غداته .

وما انقضى الظهر واقترب العصر حتى بعث السلطان فى طلبه فتوجه اليه فوجده مقطب الجبين وقد استقبله محتدا قائلا له .

اسمع يافائز — قد سمعت عنك اليوم مالا كنت أود أو أرقب سماعه .

فاضطرب الامير وقال

وماذا سمعت أيها السلطان العادل

فأجابه السلطان (بلغنى انك تلاقى فتاة فى حدائق النيلوفر وان بينكما علاقات غرامية فبحثنا عنها لاقطع رقبتها فما وجدنا لها أثرا رغم البحث الدقيق — ولكنى واجدها بأذن الله)

فاصفر وجه الاميروزاداضطرابه فاستطردالسلطان قائلا (والآن عرفت سبب عزلتك وكآبتك وإحجامك مبدئيا عن السير بحملة الجنوب — أقلع يافائز عن كل هذا الغى واعلم ازلكل إنسان منزلة وقدرا وقد أجل الله قدرك ورفعك الى درجة الملوك فتخلق بأخلاقهم التى لقنناك إياها وإياك والنزول عن ذلك . وقد وطنت نفسى على منعك عن كل مافيه أساءة لك ومساس بتقاليد وكرامة الدولة بجميع الوسائل التى تكفل لى ذلك وقد تصادف ازقادنا الحديث معك أمس إلى ذكر الاميرة (سهام) فاعلم أننى ولا بد مزوجك بها عقب عودتك منصورا . ثم تهدج صوته قائلا « لكى أقضى وانا هادىء البال مستريح الضمير وقد تركت تاجى وصولجانى فى يدمن يليق ازيتملك على شعبى ويستحق عنى عرشى من بعدى — ورغبة فى وضع حد حاسم للموضوع سأبعث بأحضار الاميرةسهام الى هنا الآن لمفاتحتها أمامك وبحضورك بهذا الامر ولقراءة الفاتحة حتى يعلم الجميع رغبتى هذه وإرادتى الواجبة الاحترام والطاعة »

ثم نادى السلطان ياوره ليطلب منه تنفيذ ذلك فأسرع الامير الى السلطان متوسلا بقوله « ايها السلطان العادل — اى ابتاه

المحبوب . أستحلفك بالله أن لاتفعل هذا الامر والا قضيت على القضاء المبرم — انى مدين بطاعتى العمياء لك . وتفانى فى رضائك ولـكن لاأستطيع ان أعطى قلبي لمن لا أشعر بعاطفة نحوه . واننى أشهد الله ووالدي السلطان والاجمعين لان تعلقى بهذه الفتاة وان تـكن من عامة الناس لعظيم . وان حبي لها لهو حب أبدى سرمدى فيه خلود لروحينا وبقاء لنفسينا . وانى لا اعتقد يا أبتاه بوجود فتاة أخرى غيرها تصلح ان تـكون اميرة لولى عهدك . انهـا لعلى خلق عظيم لايوجد امثاله عند بعض الملوك . وان جمالها لمنقطع النظير قل ان يخلق الرحمن له مثيلا . فأتضرع اليك ايها السلطان العادل ان تبقى هذا الامر كما وعدت من قبل حتى عودتى من الجنوب.

فهز السلطان رأسه إشفاقا على حال ابنه وقال « اذهب يافائز وأكمل العدة للغد ولسوف يقضى الله مايأمر به — ولـكن اعلم يافائز اذا انت خالفت امرى وخرجت عن طوعتى وحاولت الزواج من غير « سهام » فلسوف تقع على راسك اللعنة والنقمه الى الأبد.

فاهتز الامير من هول ماسمع وقال للسلطان فى هدوء وثبات ايها السلطان العادل فلتكن مشيئه الله جل وعلا فنحن لانملك لانفسنا لاضرا ولانفعا — انا ذاهب لتنفيذ امر السلطان ولتدبير العدة لغداتى فاستودعكم الله الآن »

ثم انحنى أمام السلطان مسلما ونهض للذهاب فأجابه السلطان

بصوته الرزين (استودعك الله يا فائز وليلهمك الله بما يصلح من شأنك فى دنياك وآخرتك)

ما خرج فائز من أمام السلطان حتى غير من زيه وهرول إلى النيل فاستقل قاربه الذى سار الهوينا وهو يتهادى على الماء تحركه المجاذيف وقد جلس فيه الامير تحت مظلته مطرقا غير آبه لما كان يحيطه من المناظر الجميلة وبما يسمعه من تغاريد الاطيار وأناشيد النوتية .

ما أعمر القلب الفتى بالحب وما أشد تعلقه به وما قيمة هذا العالم الضخم والعرش الفخم والحراس والحشم والعبيد والخدم وسائر كل هذه النعم لدى قلب الفتى الفتى إذا لم يبهج بالحب ويتذوق من كؤوس الهوى — وهكذا نسى الامير كل شىء وسبحت أفكاره الى جميلة مستعرضا وجهها الصبوح وقوامها اللدن ونظرات عينيها الخلابة وأحاديثها الحلوة الجذابة وروحها الخفيفة ونفسها الابية الوثابة .

أخذ القارب فى الاقتراب الى الشاطىء رويدا وقد خفت سرعته ورفع النوتية مجاذيفهم لأعلا وأدار رئيسهم سكانه نحو اليمين فاشتد خفقان فؤاد الأمير وما هى إلا لحظة حتى رسا القارب على البر تحت ظل (العفا) المحبوب فقفز أميرنا اليه وقد أمر النوتية بربط القارب على مسافة من المكان حتى لا يرى .

كان هذا الكوخ مصنوعاً من خشب الليخ يملكه رجل هرم من الدراويش الاتراك اعتاد الامير الاحسان اليه فى أوقات منتظمة فكان يلقاه ويلقى حبيبته جميلته بمزيد الترحاب دون ان يعرف هوية هذا المحسن الكريم .

دخل الامير كوخ الصفا فألقى حبيبته جميله فى انتظار مجيئه وقد وافته اليه قبل لحظة . وما تلاقيا حتى نسيا العالم وما فيه فنسى الامير امر حملة الجنوب ونسيت هى ما تعانيه من كروب فتعانقا طويلا وتعاتبا كثيرا على خلف موعد الامس بينما يحاول الامير كتمان ما فى نفسه من ألم إلى أن غلبت الطبيعة البشرية على أمرها فسالت دموعه ساخنة على خديه .

جزعت جميلة لهذا فسألته بلهفة قائلة (أنت تبكى — لم ذلك — ما بك حتى يبكيك يا جميل) فلم يتمالك نفسه أمام الصوت الحنون وسحر العيون حتى فاضت نفسه فأجهش بالبكاء وضم الفتاة الى صدره بشدة وهو يقول .

(بالله تسمعين ما سأقوله لك . وبالله تتشجعين . هذه آخرة تلاقينا إلى حين . لانى راحل . راحل عنك إلى الجنوب)

فوجمت الفتاة ووقفت بلا حراك ثم لعبت شفتيها وصاحت قائلة (أراحل عنى أنت . . . أيمكن أن يكون ذلك كذلك — وهل

فى هذا معنى بانني لن ألقاك . . . ولـكن كلا وألف كلا ... هذا لن يكون أنى تابعتك إلى آخر هذا العالم)

فقال لها وقد هزته شجاعتها (محال تنفيذ قولك هذا يا جميلة . انني مسافر للحرب . سأقاتل أعداء السلطان)

فقالت له بلهفة (للحرب . . . أى حرب . . وما شأنك والقتال ولست أنت من رجاله ولا من محترفيه)

فأدرك الامير حرج موقفه ثم أطرق قليلا وقال (كان أبى صباح اليوم عند السلطان وساق الحديث ذكرى فود السلطان لو صحبت ابنه الامير فائز الى الجنوب مع جنوده فلم أر ووالدى بداً من طاعة السلطان المحتمة علينا جميعا)

فاغرورقت عينى الفتاة بالدموع وقالت على الفور (تبا لفائز هذا — انني اكرهه ولو لم أره) فابتسم الامير عن يأس ولم يتكلم فتابعت الفتاة قولها (وهل من سبيل الى ما بقى من أمل وحيد هو التراسل) فأجابها (طبعا يا جميلة ما عليك الا أن تبعثى برسالاتك إلى الامير فائز — ومنه إلى جميل — فتصلنى بلا مشقة وثقى بأن حبى لك هذا سوف يشدد من عزمى ويقوى من ساعدى فنتغلب على هؤلاء القوم وأساعد الامير على النصر فأعود اليك سريعاً — وأتخذ منك زوجة ونعيش معا في رغد وهناءة) فجرت دموع الفتاة غزيرة وتعانقا وأكثرا من التقبيل . .

بينما هما يغـترفان فى هذه الهنيهة من كؤوس حبهما وهيامهما اذ سمعا قرعا شديدا بالباب فاضطربا ونظر كل منهما للآخر مستفهما متسائلا .

نتركهما الآن فى حالتهما المضطربة هذه ونعود الى السلطان — فبعد خروج الامير من حضرته نادى ياوره وقال له « ابعث بمن يستدعى الاميرة سهام الى هنا لمقابلتى » فدهش الياور فى نفسه من إستدعاء الاميرة لهذا القصر لاول مرة ولـكن علله بانه نتيجة لما حدث أخيرا من المفاجآت .

وفى الحال أوفد من يستدعيها من قصر الربيع ، مكان إقامتها الخاص وهو واقع فى حدائق القصور ، ولـكن الرسول عاد من دونها فقال الياور للسلطان « لم نجد الاميرة فى قصرها أيها السلطان العـادل » فدهش السلطان وقال بغضب « وأين تـكون » . . . « ابحثوا لى عنها وآتونى بها »

فعاد الياور من دونها ثانيا وقال للسلطان (قد علمنا أيها السلطان العادل انها خرجت من قصرها عصر اليوم وقال حارسها الخفى انها قصدت الى كوخ خشبى صغير لرجل درويش فقير مقام على النيل فى نهاية حدائق البشرى يقال له (الصفا)

فقال السلطان (وما شأنها بهذا الكوخ).. (اذهبوا واحضروها لى حالا) ولكنه عدل وقال (انتظروا ـ سأذهب بنفسى فأعدوا القارب السلطانى الازرق)

وما مرت دقائق حتى كان السلطان والياور حسن وبعض الحاشية بالقارب فى طريقهم الى (الصفا) وما وصلوه حتى صعدوا الى البر وقرعوا باب الكوخ بالشدة التى اضطرب الامير وفتاته منها أى اضطراب

قالت الفتاة واجمة (أشعر بان هذا أبى) (فاهرب منه) فقال لها الامير (مامن داعى الهرب) فقالت (لاوقت للنقاش اهرب لاجلى انا . ومن أجل حبنا الدائم) فادرك الامير مغبة الأمر ولم يسعه إلا الرضوخ مرغما فقال (سأعمل فقط لارادتك وخيرنا) ثم عمل على الفرار وقد عثرت اقدامه فى هروبه بأوانى نحاسية موضوعة للزينة فى الكوخ فقلبتها فاحدثت ضجة سمعها الطارقون فزادت الموقف رهبة وشددوا الطرق . الى أن صاح صائح (افتحوا ـ السلطان . السلطان) ففتحت الفتاة وهى تنتفض خوفا وهلعا وما رآها السلطان حتى دفعها عن طريقه بعنف وهو يقول (مامعنى كل هذا ياسهام)

فقالت (لاشىء أيها السلطان العادل لقد عثرت قدماى بهذه الاوانى وانا مسرعة لفتح الباب)

فقال السلطان (دعينا من هذا فقد يكون ذلك صحيحا ولكن مامعنى وجودك هنا) فقالت الفتاة متلعثمة (اتخذت هذا الكوخ الهادىء أيها السلطان العادل لاقضى فيه ردحا من الوقت فى هدوء)

فلم يقتنع السلطان بهذا الجواب وقال (فى هدوء - أى هدوء هذا تنشدينه . والهدوء سائد كل الامكنة) ثم اقترب منها متفرسا في وجهها ثم قال (ولكن أرى وجهك مكفهرا وعلى عينيك آثار البكاء)

فاعترى الفتاة خوف شديد وخشيت العاقبة ورأت أن تعمد الى الحيلة لاثارة شفقة السلطان فقالت متباكية (كنت هنا أبكى والدى الذى قتلته بيديك وما برحت ذكراه في مخيلتى)

فطرق السلطان وقد بدأت كلمات الفتاة تحرك عوامل الشفقة فى قلبه فاذهبت عنه بعض الوساوس فقال لها (وما كان ينبغى أن يكون غير ذلك يابنيتى - ولو كان الله قدر لابيك أن يقتلنى لفعل ولانعكست الآية)

فاطرقت الفتاة وقد لاح لها ضوء النجاح فى ابعاد السلطان عن الشبهة فى أمرها وقد اغرورقت عيناها وهى تبكى فراق المحبوب الذى ذهب ليقاتل فى الجنوب فظن السلطان انها تبكى أباها فضمها الى صدره وقبلها قبلة ابوية وقد تألم لدموعها وقال لها (لاتحزنى

يا ابنتى ـ اذا كان أبوك قد مات فانى فى مقامه ولسوف اجعلك أسعد مخلوقة فى البلاد وازوجك من ابنى الامير فائز وتكونين اميرة السلطنة ثم سلطانة البلاد بعد ذلك)

فهزت الفتاة رأسها وقالت بحزن لا أود أن اكون زوجة لابنك أيها السلطان)

فدهش السلطان وقال (ولماذا ياسهام ـ ان ابنى هو خير بعل يصلح لك)

فقالت الاميرة أو الفتاة (أعرف ذلك أيها السلطان العادل إلا اننى لا أستطيع التزوج به ولن أكون زوجة له)

فقال السلطان(أنا واثق ياسهام اذا رأيتيه وعرفتيه ستغيرين من رأيك هذا)

فقالت (اننى لن أغير من فكرى ابدا .. فاننى أحب سواه وسأتزوج ممن أحب)

فبهت السلطان لساعته وجزع لهذا القول أشد الجزع وكأن صاعقة قد انقضت عليه فدفع الاميرة بغلظة عنه قائلا

(ماهذا الكلام أيتها الخاسرة ـ لسوف احملك على احترام رغبتى واطاعة ارادتى)

فقالت له (ايها السلطان العادل . افعل بى مايروقك)

فأجابها (دونك واصمت أيتها الطفلة العاقة لقد ربيتك صغيرة وهيأتك للامارة والسلطنة والآن تسخرين بنعمتي وترفضين ملتمسي وتعبثين برضاي ـ فاذا لم تعودي الى صوابك سيكون لي معك شأن غير هذا الشأن)

ثم تركها وهو على أشد حالات الغضب بعد ان كلف الياور بان يصحبها الى قصرها وعاد برجاله الى القصر وكان أميرنا قد سبقهم اليه ـ ولو قدر له انكشاف أمره بالسكوخ لانقلب موضوع قصتنا وكانت اتراحها افراحا ولانتهت على أحسن حال ولكفانا مؤونة التطويل ولكفى القراء القلق والشغف والتفكير وتحميل كل هذه القرون الطويلة مانطيق وما لانطيق ولكن هكذا أراد الله فلا مرد لقضاءه .

الفصل الرابع

أقلع الامير بحملته الى الجنوب بعد ان أوصاه والده بجميل الوصايا وزوده بثمين النصائح وتمنى له السلامة والعودة بالظفر المبين .

ترك الامير السلطان فريسة للوحدة والوساوس لا سيما بعد غضبته الاخيرة مع الاميرة « سهام » فكان كلما تذكر السلطان حادثه معها انتابته آلام نفسية عميقة وفكر في انه اذا أخذها بالعنف وارغمها على الزواج بابنه فربما أقدمت على عمل قد يشين من أمر الدولة وان هو تركها لارادتها ربما تزوجت بمن اختارته فتجلب له عاراً لا يستطيع في اعتقاده محوه . فقرر أن يصلح الامر بالحكمة ورأى أن يحتاط له فشدد المراقبة على قصر الربيع واوصى ياوره حسن بزيادة الالتفات واليقظة .

مضت أيام قلائل انهمك فيها السلطان باعداد العدة لملاقاة الصليبيين فكان ديوانه مجمعاً للقواد ورؤساء الجند واهل الرأى من رجال الحرب حتى اذا كان ذات يوم دخل عليه رئيس الخصيان وهو يرتجف خوفاً وارتمى على قدمي السلطان يطلب العفو وقد أمسك بيده رقعة من الورق .

ولما سأله السلطان عما دهاه استمر فى ركوعه وهو يقول :
« اطلب العفو أيها السلطان العادل »
فقال السلطان « ويح هذا المخنث — ماخطبك يانصف رجل »
فقال الخصى وهو يتلعثم (الاميرة سهام أيها السلطان العادل)
فقال السلطان جازعاً (ما أمر الاميرة — تكلم) ففاه الخصى بالفاظ غير مفهومة وهو يرتعد
فاشتد غضب السلطان وقال له (تكلم أيها الكلب والا ضربت عنقك) فقال الخصى وقد كاد الخوف ان يقتله وهاله مما رآه مرتسما على وجه السلطان « الاميرة سهام اختفت فى هذا الصباح ايها السلطان العادل وتركت هذه الورقة » فاختطف منه السلطان الورقة وقرأها على عجل فاذا بها الآتى : —
« مولاى — ابتاى — السلطان العادل . اصفح عن ابنتك المسكينة واغفر لها زلتها التى سببتها اليها بمحاولتك التفرقة بين قلبين تآلفا وتعاهدا على المحبة وروحين بريئتين قد امتزجتا وتعاونتا وأزمعتا أن يقطعا معاً شوط الحياة في هذا العالم الملىء بالغرائب والاسرار . فأردت أيها السلطان العادل أن تبيعنى لمن لا أهبه قلبى فوجدت انه حرام على ان أمكنك من ذلك إذ ان قلبي لم اعد اقتنيه فقد ملكه من قبل رجل آمالى واحلامى
وبما ان وجودى الآن فى بلاطك بعد هذا قد يسبب لك بعض

المتاعب فى الوقت الذى انت احوج فيه الى راحة البال من اى زمن مضى فأنا ذاهبة عنك الى حيث لا أعلم . فاستودعكم الله واستحلفكم يا ابتاه ان تلتمس لى العذر فى فعلتى هذه وانى غير ناسية لجميلك على حتى اليوم الاخير من حياتى .

أستودعكم الله مرة أخرى .

ربيبتك البائسة — سهام»

ما قرأ السلطان ما في هذه الورقه حتى اسودت الدنيا فى وجهه وارتجفت اعضاء هذا الشيخ وكاد أن يسقط على الارض وكان قد انتصب واقفاً فساعده وزيره الصالح على الجلوس فجلس ثم قال لاهثاً « ادركوها — ابحثوا عنها — فتشوا عليها »

فانطلقت الحاشية تنفذ أوامر السلطان الذى كان يناجى نفسه بصوت مسموع قائلا « أشهدك اللهم انى لم ابغ سوى الخير . والخير كله بغيت . لقد كان اعتقادى بأن ابنى هو خير زوج يصلح لها وكان ولا يزال يقينى بها انها خير زوجة تصلح لابنى المحبوب فعمدت إلى هذا من اول الامر وكان ذلك ايضاً وعدى لأبيها وهو يموت بين يدى وقد كان شجاعا كريما

ربما لا تعلم أيها الصالح بقصتها للآن . وأدار السلطان وجهه نحو وزيره واستطرد قائلا بصوته الخافت

تقابلت مع ابيها منذ عشرين عاما وجها لوجه فى ميدان القتال

في بيداء الشام . وكنت لا أزال أميراً وشابا قوياً وكان تحت قيادتي جنود والدى المتعبة وقد اضناها الجهد واجهدها العطش وانعدمت عنها المؤونة ولم يكن يحركنا غير غيرتنا على الدين والوطن

وكان والدها اميراً صليبياً . وعظيما من عظماء الفرنجة . يقود هو الآخر فرقة من جنوده وهو يدافع ايضاً لأجل نصرة دينه ولم تكن حالة جنوده باحسن من حالتنا . وما وقع نظرنا عليهم حتى هممنا بالقتال . الا انه كان نبيل الخلق إلى حد كبير . فأشار على بان نترك هؤلاء البؤساء — أى جنودي وجنوده — ليستريحوا برهة ونتنازل نحن الاثنين سوياً بعيداً عنهم في الميدان . وأينا قتل رفيقه فهو الظافر — فادركت من هذا القول ما كانت عليه اخلاق صاحبي من النبل والكرم . ولكن المسكين وقف فجأة وكأنه يعلم بخاتمته وقال لى « لى ملتمس التمسه منك » فأجبته « وما هو ؟ » فقال

« لى ابنة صغيرة ماتت عنها أمها بالطاعون وهى ترافقنى قبل أن نشرد فى هذه المعارك الاخيرة بالصحارى — والآن أنا بعيد الموطن والامل بعيد في الرجوع اليه . فان قتلتنى فانى أوليك امرها من بعدى »

فاتفقنا على ذلك وتنازلنا زهاء الثلاث ساعات — وكان فارساً مقداما — الى ان قيض الله لى الغلبة عليه . فطعنته طعنة نجلاء اصابت منه مقتلا فخر صريعاً وقد ذكرنى وهو يحتضر بوعدى

فقلت له « اطمئن فسوف تكون كابنتي ، وسأزوجها لابني »

قلت هذا وأنا في شدة التأثر من الموقف ولم أع ما أقول . ولكن ذلك اصبح وعداً على واجب وفاؤه

فابتسم لي وهو يلفظ نفسه الاخير وقال لي (شكراً أيها الشهم . فليكافئك الله) واسبل عينيه واسلم الروح .

ثم استولينا على معسكرهم واخذت الاميرة الصغيرة وما زلت مكرما ومدللا اياها للآن . وما ترعرعت حتى طلبت مني الاسلام واخبرتني انها رأت رؤيا قابلت فيها والديها على شاطىء نهر اخضر وهما مسرورين وقالا لها « ألم تسلمي بعد يا سهام — ولم يكن هذا اسمها — لقد اسلمنا نحن فاسلمي واطلبي لروحينا المغفرة من الله »

فاسميتها من حينها بالاسم العربي الذي اختاره والداها لها في الرؤيا واشهدتها الشهادة في جمع من العلماء — آه يا الهي أنت اعلم العالمين بما اضمره واقوله . ثم التفت الى حاشيته قائلا « ألم تجدوها بعد . ألا سحقاً لكم . أيها الياور حسن . اذهب ولن تعود الا بها . أفهمت أمري هذا »

فاضطرب الياور وخرج من امام السلطان وقد تركه يبكي فأبكى الحاضرين .

نعود الى سهام فكانت قد اظلمت الدنيا في وجهها عقب تصريح السلطان وسفر جميل فحسبت لأقوال السلطان الف حساب وخافت

ان يفاجئها بامر لا تحبه فازمعت على الفرار فجمعت ما تحتاج اليه من حليها وغادرت القصر فى ذلك الصباح متنكرة في زى امرأة عجوز بعد ان تركت كتابها هذا للسلطان .

وما بارحت حدائق القصر حتى قصدت البريد فارسلت كتابا وشيئا لجميل — عن طريق الأمير فائز — ثم ولت وجهها شطر البرارى . ومازالت تجتاز بلادا وتمر على قرى . حتى فرغ زادها وحل بها التعب فجلست المسكينة لتستريح وهى تتلفت يمينا وشمالا خوفا من أن يعثر عليها أحد أعوان السلطان ورجاله فيعيدونها اليه لينفذ فيها وعيده

ولكن القدر الغاشم أرسل اليها بعض اللصوص فخرجوا عليها وسرقوها وهى فى امنها تستغيث ولا مغيث . وشاء بعض قساة قلوبهم قتلها ولكنهم أبقوا عليها لشفاعة احدهم لها فاكتفوا بتركها وهى على أسوأ حال

فقامت وهى نصف عارية تنتفض حزنا وفرقا وهى لا تعرف الى أين المسير . فرفعت عينيها الجميلتين وهما مغرورقتين بالدموع صوب السماء لتشكو الى الخالق ماأصابها من ظلم الانسان . ولتبتهل اليه بان يشملها برعايته ويهديها الى ملجأ أمين — وما أنزلتهما الى الارض حتى التقيتا باعرابية عجوز من قبائل شرق سينا — اشفقت عليها وقادتها الى خيامها . فدثرتها وأطعمتها وأضافتها عندها حيث

نالت الاميرة شيئا من الراحة وعادت الى نفسها الطمأنينة فكانت ترعى للعجوز غنمها على سهول التلال القريبة المغطاة بالقليل من الاعشاب الخشنة وقد أطلقت لفكرها العنان حول جميل وكيف الاتصال به وشدة خوفها من السلطان

الى أن مضت أيام الهدوء ـ واذا بذات يوم هاجم الصليبيون حدود مصر الشرقية يطاردون بعض القبائل التى تشاكسهم وتعكر عليهم صفوهم فعثروا على قبيلتنا هذه التى آوت الأميرة . وأعملوا فيها السيف فقتلوا من ضمن من قتلوا منها مضيفتها العجوز المسكينة واستولوا على الاغنام والعتاد وأخذت النساء الى أسواق الشام ـ ومن ضمنهن الاميرة التى لم تنفعها توسلاتها اليهم ـ فبيعت المسكينة لرجل فظ غليظ القلب كان يشتغل فى كسر الاحجار من التلال فكان يرغمها على العمل معه بضربها وسومها العذاب الاليم

مضت أشهر على هذا الحال المضنى فكانت الاميرة تأكل أردأ الاطعمة وتقاسم الدواب التى كانت تعمل معها نهارا فراشها على الثرى ليلا . ومازالت كذلك حتى ثار ذات يوم عبد أسود من عبيد سيدها . طالما سامه أنواع العذاب . فاتفق ان انهال عليه ضربا بالسوط فقابل العبد الضرب بمثله فتداخل العبيد فكان اضطراب ـ انتهزت المسكينة فرصة حدوث ذلك وهربت من أسرها .

ولكن القدر أبى عليها ألا ان تترع كأس الحنظل حتى الثمالة فمازالت تجرى من رابية لأكمة . ومن سهل لهضبة . الى أن أمطرتها السماء بوابلها فغاصت المسكينة فى الوحول وسقطت فيها وهى أقرب الى الموت منها الى الحياة حتى عثر عليها بعض أهل النخاسة فاختطفوها الى مركبهم وسارت بهم حتى رست على الشواطىء المصرية ـ حيث بيعت المسكينة مرة أخرى لامرأة عجوز اشترتها بثمن بخس . لضعفها ولاصابتها بعلة صدرية رزئت بها مما أصابها أخيرا ـ فكانت المسكينة تسعل سعالا شديدا ولا يستر صدر تلك البائسة النحيل سوى خرقة من القماش البالى

تلك سلالة الامراء وربيبة الملوك وكانت بهجة السلطان وريحانة قصوره ـ فسبحانك المعز المذل لك فى كل آية حكمة . وأنت على كل شىء قدير

لم يخفف فقدان سيدتها العجوز احدى عينيها من عنتها وجبروتها التى صبتهما على تلك التعيسة صبا فكانت تغلق عليها الباب خوفا من هربها وتضربها الضرب الأليم لأقل واتفه الاسباب وكثيرا ماغشى على المسكينة من فرط ألمها ومرضها دون ان يستثير ذلك شفقة تلك العاتية حتى كانت حياتها جحيما واى جحيم لا يثيره غير سلواها بذكر حبيبها جميل واخلاصها لحبه الى ان علمت ان

لشمطائها ابن يقاتل مع حبيبها فى الجنوب فكانت ترقب حضوره بفارغ صبر حتى تظفر بخبر من اخبار ذلك الحبيب .

وعلى ذكره نقول ان جميل او الامير فائز البحر بالخمة صوب الجنوب وكله أمال بالنصر لكى يعود ويتزوج بجميله ، سواء رضى والده السلطان بذلك أو لم يرض — وهذا كان ماقد اعتزم عليه فكان موضع تفكيره طوال ذلك الطريق الذى زاد من طوله رسو السفن كل يوم على بلد من بلداز الصعيد فيخرج لهم أهلها و يقدمون بين الطبول والمزامير أحسن ما لديهم من مأكول ومعسول الى رجال الامير داعين لهم بالنصر المبين القريب .

وهكذا سارت السفن صاعدة فى النيل حتى وصلت فى صعيدها الى قصيدها . فنزلت عنها الرجال وشدت الحبال . وأقاموا معسكرهم وجعل الامير يتفقد جنده ويصدر أوامره ويضع خططه ولم يك هذا كله بصارفه عن التفكير بجميلته فقد كانت صورتها مطبوعة فى مخيلته حيثما سار وأينما ارتحل .

وما استيقظ من نومه يوما فى خيمته الكبيرة حتى وجد على طاولة بجوار فراشه جملة مكاتيب ورسائل بينها ربطة كبيرة عليها هذه العبارة (ترسل هذه اللفائف الى الامير فائز ولى عهد السلطنة وقائد حملة الجنوب — ومنه للضابط جميل أحد أعوانه)

ففهم الامير في الحال الراسل لها فاضطرب وخفق فؤاده

وفضها على التو فوجد فيها سيفا بديع الصنع حاد النصل وقد لفت حوله رقعة كتب عليها « سيدى جميل ـ أهديك هذا السيف لتقاتل به أعداء بلادك . وتعود الى فائزا ـ وأنا باقية على عهدك مهما أصابنى فى ذلك »

جميلة

فسر أى سرور بهذا السيف والكتاب ولكنه لحظ شيئا خفيا بين تلك السطور أضاع تفكيره فيه دخول أحد الخدم عليه وهو يقول « وصل هذا البريد صباحا أيها الامير فاحضرناه »

فاجابه الأمير « حسنا ياسالم »

مضت أيام قلائل ظهرت فيها بوادر الثوار ومن ثم بدأت المعارك . فنترك الامير قليلا فى معسكره وبين عسكره وفى مواقعه التى ستطول تبعا لطبيعة تلك البلاد وكر وفر الثوار واعتصامهم برؤوس الجبال . ومناوشتهم جنود الامير فى الامكنة المستترة . مما من شأنه ان يطيل وقت القتال فى تلك الازمنة الغابرة

الفصل الخامس

جرت الايام التى استعرضنا فيها هذه الحوادث تباعا ـ فكان السلطان في معسكره بالشام بين ضباطه وجنوده وقد دار كثير من المعارك بينه وبين الصليبيين ـ وقد ظهروا عليه فى بادىء الأمر واستباحوا بعض ممتلكاته الشمالية الشرقية وخرجوا ودمروا الكثير من القرى والعشائر مما وجدوه فى طريقهم

ولكنهم لم يلبثوا ان عادوا القهقرى امام جيوش السلطان الباسلة فشردوا فى بوادى الشام بعد معارك طويلة متتابعة حتى كل الفريقين عن القتال فعقد بينهما صلح شريف عاد على أثره السلطان الى مصر وهو مرفوع الرأس موفور الكرامة بينما كانت تأتى اخبار الامير من الجنوب من حين لآخر بانتصارات جديدة وفتوح عديدة .

لم يبهج كل هذا قلب السلطان بل كانت تلازمه أبدا سحابة من الهم ويصادفه دائما ظل من الحزن مما زادعليه آلام شيخوخته وكبره فكان يدعو من وقت لآخر رجال بلاطه ويسألهم عما وصلوا اليه فى بحثهم عن الاميرة سهام فكانوا يجيبونه أبدا بالسلب حيث انه لم ير احد وجه الياور حسن منذ فرت الاميرة

كانت سهام تقاسى شظف العيش والبؤس مع سيدتها العجوز الى أن عاد ابنها من ميدان القتال بالجنوب وقد برأ من جرح خلف

له شللا باحدى ساقيه وما وقع نظره على الامة الجديدة حتى أراد أن يجعل منها لنفسه تسلية ولهوا . حتى اذا ماتفاقم حاله معها ذات يوم ورأت وميض الشر يلمع فى عينيه ولم تجد مناصا للتخلص من الوقوع فيما تكره — اخذت جرة كبيرة وضربت بها راس ذلك العلج فشجتها وسقطا معا على الارض — هو من فرط ما أصابه وهى لاعيائها وخوفها — فعلا الصياح واقبل الحرس فقادوها الى الخارج إلا انها تمكنت من الافلات من إيدى هؤلاء القوم إذ حدثت ضجة كبيرة فى الطريق فانتهزتها فرصة وهربت من أيدى آسريها .

فانطلقت تعدو المسكينة على غير هدى وهى تصرخ مستغيثة الى ان اصطدمت برجل كان يسير فسقطت على الارض أمامه فاخذته الشفقة عليها ومد يده ليقيلها من عثرتها ولكنها ماوقعت عينيها على وجهه حتى تراجعت مذعورة وجد هو فى مكانه وكان قد أدركها الشرطيان فابعدهما عنها هذا الرجل وقد وقف ذاهلا ـ وما تبينه الشرطيان أيضا حتى خرا على الارض ساجدين بينما تقدم هو اليها وهو يقول (لقد حان سعدى واقبلت الدنيا على بعد الادبار)

حاولت الفتاة التملص منه إلا انه قال لها (أيتها الاميرة المبجلة أرحمى عبدك المسكين وعودى معى الى قصر السلطان فهو فى انتظار مجيئك) فقالت له

(اتركنى أيها الياور لحالى فلن أستطع العودة الى القصر) فقال لها

أيتها الاميرة. اعدك بان السلطان لن يحاول زواجك بعد الآن بالامير فائز . ثم أمسك بها بلطف وقادها الى هودج ركبته الى القصر وهو لا يصدق ساعته

أما ذلك الصعلوك وقد وصل أخيرا الى المكان لعجز ساقيه فما رأى ذلك حتى توارى عن الانظار وحمد الله على المصاب ورضى من الغنيمة بالاياب

قصد الياور القصر بعد طول غياب عنه قضاه باحثا منقبا لم يترك بلدة أو قرية الا وجابها . وسأل أهلها . واستنجد بحكامها . مما لم يفده ذلك شيئا . ولم يكن يدور فى خلده ان ضالته سوف يعثر عليها بجوار القصر وعلى قيد خطوات منه

ماوقع نظر السلطان على الاميرة حتى بكى وخر لله ساجدا وترامت هى على قدميه تقبلهما والدموع تنهمر من عينيها وهى تقول (الصفح يامولاى) فرفعها عنهما برفق وهو يجيبها (لقد سبق الصفح يا أبنتى فاين كنت ياسهام ، وما بال شكلك قد تغير وصوتك قد بح وعيناك الناضرتين وقد ذبلتا ، تسعلين ، انت تسعلين ياسهام . اسرعوا اسرعوا دفئوها . احضروا لها النطاسى لمداواتها — اسرعوا أيها الرجال اسرعوا . احمدك اللهم احمدك)

استلقت سهام على فراشها الوثير يحيطها عشرات الجوارى والوصائف الحسان ينتظرن اشارة منها أو كلمة من فيها — وما

اطمأنت على نفسها حتى اسرعت بالكتابة الى جميل معتذرة عن انقطاعها عن مراسلته هذه المدة التى طالت وطال معها أمر حملة الجنوب وقد سبب ذلك للامير بعض الهم وتسربت الى قلبه الهواجس ونفذت الى رأسه الوساوس وكان يكثر من أخباره فى رسائله وهو غير عالم بان المسكينة لاتتسلمها وهى تائهة فى مناكب الارض

وانى لصاحب الصفا أن يجدها وهو لايعرف عن هويتها شيئا من قبل حتى تكدست الرسائل لديه . فقال الامير لنفسه يهذى (لاريب ان جميلة قد نسيتك يافائز ، ولكن أيكون قد أصابها مكروه ؟ كلا . لا أظن ذلك ، لا اظن ان القدر يجرؤ على النيل من هذا الجسم الغض والوجه الفتان) — وما زالت به مثل هذه الافكار حتى أتاه كتاب جميلة الاخير بعد عودتها فكان سروره به لاحد لوصفه .

وما هى أيام حتى انتهى القتال بالنصر فكتب الامير الى السلطان ينبؤه بذلك وبقرب عودته ففرح السلطان حقا كثيرا واستعد لملاقاة ابنه المحبوب .

كان الامير في طريقه الى مصر يدبر فى مخيلته حفلة الزواج بجميلة والمعدات الكثيرة التى ستقام لذلك — وفي كيفية الحصول على اذن السلطان بعد هذا النصر العظيم وأرسلت الاميرة سهام من اختصتها ووثقت بها من جواريها الى كوخ الصفا وحصلت من صاحبه

على الرسائل المقدسة لديه فكان فرحها بها عظيما وحفظتها معها في فراشها تقرأها ر قبلها حين تغفو وحين تصحو. الا انخروج الجارية وترددها على كرح الصفا أثار بعض الشكوك — وخاصة وقداشتدت الرقابة على كل من يدخل القصر ويخرج منه. فقبض عليها ذات مرة وفتشت فوجدمعها رسالةمن الاميرة لجميل فأوصلوهابهاالى السلطان فقرأها ووجد بها الآتى

« سيدى جميل ببطانة الامير فأز — أنا شاكرة لفضلك وعاجزة عن الافضاء بما أكنه لك وانني لست بناسية عهودى وسأكون قريبا شريكة حياتك . جميلة »

بهت السلطان لذلك وقال لوزيره « لخط خطها ولكن من هذا اللعين الذى سبب لنا كل هذه الآلام — اكتب لفأز حتى يحضره لنا مكبلا بالحديد — ولكن لماذا تدعو نفسها بجميلة » ثم احتد وقال للجارية « من هو جميل هذا يالعينة يابنت اللعين »

فاضطربت الجارية وسقطت على أقدام السلطان وهى لاتحرجوابا فقال لها « ان لم تقولى ضربت عنقك » فقالت له .

« أيها السلطان العادل — انني لاأعلم شيئا وانى فقط أوصل الرسائل الى صاحب الصفا فقال السلطان « آتونى أيضابهذا اللعين» فأحضروه فسأله السلطان وهو غاضب عن جميل وما يعرفه عنه فلم يحر الرجل جوابا حيث لم يكن يعلم شيئا وكان شيخا ضريرا فأعاد

عليه السلطان القول « ألا تعرف جميل هذا » فأجاب الشيخ

(أيها السلطان العادل ـ انى لا أعرف جميل هذا ولا أعرف جميلة ولم أرهما فى حياتى لانى ضرير ـ وكل ماعلى الامر ان جميل هو محسن من المحسنين اعتاد التصدق على الفقرى وكان كوخى مستودع لرسائلهما وقد أعطيت من يومين الرسائل التى كانت مكدسة لدى لهذه الجارية »

فاستشاط السلطان غضبا وقال لحاشيته « ضعوا هذا العجوز وهذه الجارية فى برج الابالسة الى أن آمر بدق عنقهما » . ثم التفت إلى الياور حسن وقال له « ياحسن ـ أريد الحصول على هذه الرسائل من الاميرة ـ أفهمت » فاطاع الياور الامر وذهب الى الحر ملك للاتصال ببعض الوصيفات .

وبعد يوم عاد للسلطان برزمة من الرسائل ولما فضها قرأ فى احداها الاتى .

« محبوبتى جميلة ـ وصلنى مكتوبك وأشكر الاقدار التى أوصلت رسائلى اليك أخيرا ـ انى لاأثق كثيرا بصاحب الصفا هذا ولا أبرر له هذا التأخير ـ قريبا ان شاء الله سأعود وانى معد كل شىء للزواج .

جميل

مافرأ السلطان هذه الرسالة حتى أخذ وصاح قائلا انى داهش ياحسن من هذه الطلاسم ان هذه الرسالة بخط فائز ابنى ولكنها

مذيلة باسم جميل . يالهى ألا تكون جميلة هى سهام وجميل هو فائز — أسألك اللهم العون والهداية . ثم دفع بالكتاب الى حسن الذى قرأه ثم فكر قليلا وقال للسلطان وهو يفض الرسائل الاخرى ويقارن خطوطها « أيها السلطان العادل لاشك ان جميل هو الامير فائز بعينه وجميلة هى الاميرة سهام نفسها لانه يلغى أن الاميرة سهام كثيرا ما قصدت النيلوفر بمفردها مساء وكما سمعت أيها السلطان العادل أن الامير كان مغرما بفتاة يلاقيها فى حدائق النيلوفر وقد بحثنا عنها كثيرا فلم نعثر لها على أثر . وان صحت فراستى فلا بد وان يكونا قد تحابا سرا دون أن يعرفا بعضهما وأخفى كل شخصيته عن الآخر .

فاضطجع السلطان الى الخلف وقد رفع رأسه وأغمض قليلا وقال يلوح لى اننى فهمت الان كل شىء — لقد أجادا المسكينان لنفسيهما الاختيار ولكنهما قد أساءا سلوك السبيل . ولكنى أحمدك الله فقد تحققت أمنيتى وابتهج قلبى وأثلج صدرى ولا يزال عندنا متسع من الوقت لتدارك الخطأ »

وهنا يستأذن الطبيب فى الدخول على السلطان ليفضى اليه بشىء فيأذن له فيدخل .

الفصل السادس

دخل الطبيب على السلطان فسأله الأخير عن حالة الأميرة فقال له الطبيب .

(أيها السلطان العادل ان الله قادر على كل شيء ولو أن الأميرة اليوم أحسن مظهراً الا أنها ساءت حالا في اليومين الاخيرين عن ذى قبل لأن الداء قد تمكن من صدرها ولكن رحمة الله واسعة وقدرته فوق كل قدرة)

فكان جواب الطبيب هذا غير واضح . فاضطرب السلطان نه وقصد الى حيث مرقدها فوجدها على فراشها هادئة تجيل عينيها الغائرتين فى الغرفة فاقترب منها وقد هاله اصفرار لونها وخمود حركتها فربت على جبينها الذى برز وقال لها (تشجعى ياسهام. يقول النظامى أنك اليوم أحسن حالا وما أظنك ألا كذلك)

فقالت سهام (أحمد الله أيها السلطان العادل حقا أنى أشعر الآن بسرور داخلى وراحة في صدرى فقدتهما من مدة طويلة — أنا اليوم سعيدة) فقال لها السلطان « حقا يجب أن تكونى كذلك فعندى أخبار تفرحك »

فتنهدت وقالت فى هدوء « وما هى يا أبتاه » فقال لها السلطان

« ان فائز سيعود قريبا » فاكفهر وجه الأميرة ولكن السلطان قال « اسمعي يا سهام فاني لم اكمل كلامي بعد — أن فائز هو جميل وما جميلة إلا سهام — وعندي البرهان » فما سمعت الفتاة حتى جحظت عيناها استغرابا ودهشة وخفق فؤادها بشدة وهبت من فراشها رغم ضعفها ومرضها وهي منفعلة وتقول

« أحقا هذا أيها السلطان العادل — ألا يكون هذا تغرير جديد لفتاة يتيمة ضعيفة قد انهكها المرض »

فأجلسها السلطان برفق إذ حثى معه تلك الانفعالات فقال لها « اليك البرهان » ثم دفع اليها بالرسائل فنظرت اليها ثم نظرت إلى السلطان وقالت « وأيضا سرقوا رسائلي من مخدعي » فقال السلطان « ابنتي العزيزة كان هذا لازما وعرفنا به الحقيقة التي غمت عليكما من مدة وسببت لكما الآلام والآن سيكون لكما كل هناء » فقالت الاميرة « لا أستطيع أن أصدق الهناء بعد كل هذا الشقاء » فأجابها « أقسم لك برب العرش أن ما قلته لك هو الحقيقة الناصعة التي علمتها اليوم واليوم فقط »

فنظرت الفتاة اليه ثم شهقت شهقة طويلة أعقبتها بصرخة عالية ومالت الى فراشها وقد أسبلت عينيها ثم فتحتهما بينما كان صدرها يرتفع وينخفض بشدة وقد اختلجت أنفاسها فقالت بصوت بطيء منخفض .

« أحقيقى يا جميل انك فائز ، هـذا سار ، سار جـدا ، قلبي مبتهج ، ويدق بسرعة فرحا ، حتى يخـال لى أنى خائفة . ولـكن ما بال أوصالى ترتجف هكذا ، وأنفاسى حارة ، ولـكنى أراها حارة اكثر مما يلزم ، صدرى يؤلمنى .. أكاد أطير من فراشى .. امسكونى . . . أرى كل شيء يرقص أمامى طربا ... ولـكنى أتألم ... أتألم أشد الألم ـ ها أنى أرتفع .. أرتفع من الفراش .. ما هذا .. بح صوتى .. يد قاسية تخنقنى ـ بالله يا أبتاه امنعها ـ ألا تراها ـ اختنقت . . اختنقت ـ وقفت أنفاسى ـ آه ـ قلبي ـ قلبي يقف ـ آه آه ـ جميل ... جميل أين ..... أنـ ... ت ..... »

وهنا سقط رأسها الجميل على الوسادة وأطبقت عينيها إلى الأبد

أسرع اليها الطبيب ولكن ما الذى يفعله هذا المسكين أمام الموت. فقال له السلطان وهو ذاهل وقد فتح فاه « ما بها ـ ماذا بم تتألم »

فكرر خصها الطبيب ثم نكس رأسه واستشهد وقال « ماتت الاميرة سهام أيها السلطان العادل »

فسقط السلطان الى الأرض ولم ينبس ببنت شفة وقد كاد أن يغشى عليه فنقلته الحاشية وهو مرتعد الاوصال ذاهب البال الى فراشه فأرقدوه عليه ولازمه الطبيب ، ولما أفاق من الصدمة طفق يبكى ويبكى الى نضب الدمع فقام من فراشه وهو يقول « أوقدوا

الشموع ـ اسرجوا القناديل ـ ما بالكم لم توقدوها ما دام الظلام قد حل والليل قد دخل ـ أين النور ـ النور يا حسن »

فضحك الجميع إذ كانت أشعة الشمس تملأ الغرفة ولكن السلطان أضحى لا يرى شيئا فقد تلمس طريقه في الغرفة فعثر بآنية أزهار اقتطف منها شيئا وصار يعاونه ياوره حتى فراش المائتة فوضع عليها هذه الزهور بعد أن بكى بكاء يفتت الاكباد .

صدرت الاوامر بكتمان الامر عن الجميع لقرب وصول الامير ووارى السلطان الاميرة العزيزة التراب بجناز بسيط صلى عليها هو ووزيره الصالح وياوره حسن وحمل النعش ثلاثة من العبيد حتى حدائق النيلوفر فدفنوها بين الزهور والرياحين ثم أقاموا لها بعد أيام ضريحا كان يختلف اليه السلطان مرات فى اليوم يقرأ عليه القرآن ويضع عليه الورد والريحان ويذرف عليه الدمع الهتان ثم يعود إلى قصره بنفس كئيبة حزينة وقلب ممزق محطم .

نادى المنادى فى المدينة بأن الامير فائز ابن السلطان سوف يصل فى الغد مظفراً منصوراً .

فقامت المدينة على بكرة أبيها وخرجت لاستقباله مكافأة له على انتصاره وما أن وصل حتى قابله فى خارج المدينة الوزير الصالح والياور حسن وباقى رجال الدولة والبلاط وهنأوه بالانتصار

وبسلامة العودة ، فسأل عن والده السلطان فأجيب انه بخير .

وسار الركب تتقدمه الموسيقات والاعلام حتى القصر فاستقبله السلطان وهو معصوب العين ورحب به واثنى على شجاعته ولكن الامير تأثر لهذا وسأل والده عن سبب ربط عينيه فعزى السلطان ذلك الى رمد بسيط قريب الشفاء . فتألم الامير لذلك ودهش لما رآه مخيما على القصر من الكآبة والحزن رغم الاعلام الخفاقة والطبول الدقاقة ولما لم يعرف لذلك سببا قصد جناحه فى القصر ليستريح .

وكان أول عمل عمله أنه بعث لاحضار صاحب (الصفا) ولكنه علم أنه مسجون بأمر السلطان فأسقط فى يده إذ وثق بأن والده لابد وقد كشف أمره وخشى على حبيبته فسعى حتى اتصل بالدرويش السجين ببرج الابالسة وكان قد نسيه القوم فى سجنه بعد موت الاميرة ومنه علم الامير بان جميلة لم تكن إلا سهام وأن سبب حبسه عدم معرفته ومعرفتهم لشخصية جميل .

فطار لبه فرحا إذ علم أن محبوبته هى الاميرة سهام التى طالما رجاه والده السلطان ليزوجه منها ، فظن أنه قضى الامر وأصبح زواجه أسهل من السهل فاسرع الى السلطان ليخبره بامر هذا الاكتشاف السعيد .

ولكنه ما قابل السلطان وكاشفه بالامر حتى وجد منه وجوما وصمتا كثيباً فحار فى أمره ودهش لتغير هذا الحال فقال له الامير (ما بالك يا أبتاه حزيناً كئيباً — ولكن كان ينبغى على أن أراعى مرض عينيكم — ولكنى ظننت ان هذه مفاجأة سارة لك . وعلى كل سأرجىء هذا الامر لحين شفائك . ولكنى سأذهب للاميرة على الفور.

فقال له السلطان بصوت مبحوح (لا . لاتذهب لايجب عليك ذلك . سأسوى الامر بنفسى حينما يتم شفائى) ثم تنهد السلطان وقال (وآمل أن تكون بعد ذلك مسروراً)

فادرك الامير ان فى الامر سراً مكتوماً عليه وصمم على كشفه فسأل أهل القصر عن الاميرة ولكن ما من أحد اجابه اجابة شافية وكأن الكل قد اعتصبوا عليه . فازدادت حيرته وباتت الوساوس تلعب برأسه .

وما أصبح صباح ليلة قضاها فى سهاد لم تذق فيها جفونه لذة الكرى حتى نزل الى الحدائق للرياضة ولكنه دهش إذ رأى السلطان يخرج فى هذا الوقت المبكر على خلاف المألوف وقد استند الى الياور حسن ليرشده إلى طريقه وما من احد يتبعه كالعادة

تبع الامير والده عن كثب وقد اضطرب لرؤيته وقد عصب عينيه وما زال خلفهما حتى بلغا من الحديقة مكاناً قصيا أخفته

الاشجار اليافعة عن الانظار وتوسطته كومة من الاحجار فرأى السلطان ينحني بجوارها منتحباً والياور يمسح من مدامعه فاضطرب الامير وحار فيما رأى واقترب رويداً وما تبين تلك الاحجار الناصعة وفهم ماسطر على جدرانها حتى وضحت له الحقيقة المريعة . فصرخ صرخة هائلة شقت سكون ذلك المكان قائلا (ما هـذا) فذعر السلطان وقال وهو يحاول أن يعثر بابنه

(ما أتى بك إلى هنا . أي بني فائز . ارجع ليس هذا مكانك) فقال فائز صارخاً (أبي . أبي هل ترقد هنا سهام) فعثر السلطان أخيراً بفائز فضمه الى صدره وهو يقول له « تشجع يا فائز رحم الله سهام فقد ماتت شهيدة الاخلاص والوفاء لك . وانا لله وانا اليه راجعون . ومصيرنا جميعاً الموت »

ولكن فائز لم يبال باقوال السلطان هذه فقد ارتخت وارتعدت أوصاله وانحنى على القبر يقبل احجاره بلا وعي وهو يتأوه ألماً وكأن ناراً تكوي أضلاعه .

لم يقو السلطان على هذا كله بعد ما رآه من حالة ابنه فاصفر وجهه واختل توازنه وقال بصوت مختنق « أي فائز وداعاً يابني » وسقط على الارض جثة هامدة .

فجن الامير المسكين من هذا الموقف فكان تارة ينحني على والده

مقبلا ، وطوراً إلى القبر مولولا . بينما وقف الياور يبكي مأخوذاً مذهولا وقد جحظت عيناه إلى أن أمسك بالامير وقاده إلى القصر وهو يهذي هذيان المخبولين وقد طار عقله وفقد لبه .

سرعان ما انتشر الخبر بين رجال البلاط وبين القواد والجند ثم سائر أفراد الشعب بان السلطان والاميرة سهام قد ماتا وان الامير فائز جن من فرط حزنه على الاميرة . فاختل الحال وكثر الطامحون إلى العرش من باقي الامراء وغير الامراء فانتشر الاضطراب وعمت الفوضى كل مكان . ونشبت المشاغبات في الطرقات بين الشيع والاحزاب . فسالت الدماء وتناثرت الاشلاء .

واجترأ المأجورون على مهاجمة القصر لاخراج من اعتصم فيه من رجال الدولة السالفة . فقفلت أبوابه ، وتحصنت الجنود خلف دروبه ، واندلعت ألسنة اللهب في المدينة . فكان المنظر فظيعا مخيفا . فاقتاد الياور حسن أميره المخبول وبعض من بقي في اخلاصه له الى (قصر الصيف الصغير) على شاطىء البحر (١) حيث أقام الامير فيه أياماً كانت أسوأ أيام راتهـا حاشيته فكان يأتي كل يوم بالغريب من الفعال والمحزن من الاقوال

(١) لا تزال بعض اطلال هذا القصر باقية بالقرب من مربوط الان . انتهى « المؤلف »

حتى إذا بزغ فجر أحد الايام لبس الامير لباس الحرب وتقلد سيفه المحبوب الذى أهدته اليه الاميرة سهام المتوفاة وخرج من القصر الى البحر . فتبعه الياور حسن وقد هاله الامر وقال له بلطف « إلى أين أيها الامير » فقال له الامير « أستودعك الله يا حسن . أنا ذاهب لملاقاة والدى وراء البحر . لأننى أشعر بقوة خفية تجذبنى اليه ويلوح لي انه فى حاجة لمعاونتى . »

« انظر . انظر . ألا تراه بعيداً ، يسير على الماء وهو يشير إلي بيديه أن أوافيه . ألا تسمع صوته الحنون . انه يطن فى أذنى بايقاعه العذب . ياحسن أستحلفك بالله ان لا تغضب جميلة حتى أعود يوماً اليها . أرجوك أن تسهر على راحتها وألا تدعها تهكو أمراً أو تتألم من شيء » .

فما سمع الياور هذا الكلام من الامير حتى تفتت كبده ولكنه تشجع وقبض على يد الامير قائلا « الى أين انت ذاهب أيضاً ايها الامير المبجل » وهم ان يمنعه ويعترض طريقه فما كان من الامير الا ان دفعه بقوة بعيداً عنه واسرع الى امتشاق حسامه وطوح به فى وجه الياور وهو يقول :

« أجننت ياحسن أتمنعنى عن اجابة أمر والدى . اليك عنى والا مزقتك اربا . اذ والدى يأمرنى أفهمتنى الآن » .

فذهل الياور الا ان الامير اسرع الى قارب صغير تركه صياد على

الشاطىء . فركبه وحرك مجاذيفه فأسرع اليـاور مرة أخرى اليـه وغاص فى الماء خلف القارب حتى ابتل فخذاه وهو يتوسل اليه ان يرجع عن عزمه ولكن الامير كان قد ابتعد فألقى على الياور بالسيف وهو يقول له « خذ هذا السيف ربما نفعك فى ساعة من ساعات محنتك » ثم سار بقاربه صوب اللجة المتلاطمة وهو يصرخ للياور بقوله « إياك وجميلة انى سأعود حتما اليهـا » الى ان غاب وسط الامواج العالية

فوقف الياور يراقبه مبهوتاً وقد سار في الماء إلى صدره ثم الى كتفيه . ولما لم يجد فائدة لرد القدر عاد بأقدام متثاقلة وعين دامعة وقلب دامى إلى القصر ومنه رجع قافلا إلى المدينة فسار فيها على غير هدى وقد أمسك بالسيف الى ان قادته قدماه كما اعتادت ذلك قديماً إلى قصر السلطان فوجد نفسه أمام ابوابه المهيمة المحطمة وقد اغلقت بعد ان كانت لا تقفل ابداً ، لا ليلا ولا نهاراً . ورأى المتسولون والمتسولات وقد جلسوا حلقات حول اعمدة مدخله يعف عليهم الذباب . وقد نام منهم البعض على درجات سلمه التى كانت تقف عليها حراسه الموشاة ملابسهم بالذهب الابريز .

ثم تخيل الاميرة سهام وهى تتبختر مع حورياتها حول برك حدائقه . وتذكر السلطان في عظمته وأبهته فى مجلسه وقد اصطف

حوله رجال الدولة ثم الامير فائز بوجهه الصبوح وهو يجرى بجواده بين أفنية القصر وميادينه وما صحى من ذهوله حتى علم ان كل هؤلاء قد ذهبوا إلى عالم آخر .

اسودت الدنيا فى وجه حسن ورأى عيون من أحبهم وعاش لهم واجذلوا له العطاء وكأنها تنظر اليه من عليائها قائلة له « ماذا تفعل بمفردك من بعدنا ياهذا »

فأطرق يفكر ثم قلب السيف الذى اعطاه له الامير قبل أن تبتلعه امواج البحر وتذكر قوله له « خذ هذا السيف فانه ينفعك فى ساعة من ساعات محنتك . . . »

فثارت نفسه عليه وامسك بالسيف واغمده فى صدره فسقط يتدرج على سلم القصر جثة هامدة ، وقد اجتمعت حوله المارة ينظرون اليه وهو يتلوى ويلفظ نفسه الاخير . . .

الخاتمة

هنا سكت خال فؤاد هنيهة ازدرد فيها لعابه ثم قال « وهكذا انتهت هذه القصة المفجعة » . . . « ضعى ياسوزان مئزرك على كتفيك اذ أرى الجو قد اظلم وبرد . ولكن مابال فؤاد قد تأخر كثيرا »

فاضطربت سوزان وقد علقت بذهنها هذه القصة المؤلمة وقالت « اننى ياوالدى اشعر بانقباض فى صدرى لهذا الغياب فوق انقباضى الشديد من سماع هذه القصة »

فحاول ان يجيبها على قولها ولكن تهلل وجهه بفرح فجأة وقال لها « انظرى الى بعيد . . ليس فى هذه الجهة . . الى يمينك قليلا . . هاهو شبح القارب آت . . . » فتهلل وجهها بشرا ـ ثم اخذا يراقبان القارب وهو يقترب من الشاطىء شيئا فشيئا ـ تارة يعلو وأخرى ينخفض بين الامواج . وما اقترب حتى شاهدا شخصين فيه ثم تبينا ان أحدهما هو فؤاد وان الآخر قد مال بصدره اليه فدهشا لذلك واستمروا فى مراقبتهما

رسا القارب على الشاطىء فنزل منه فؤاد وهو يعين الآخر وما وقع نظر رب الدار على هذا الشخص حتى صاح فى وجهه

مهللا وانحنى عليه مقبلا اذ عرفه لوقته بأنه والد فؤاد وقد كان بالبحر فانقذه فؤاد من الغرق بعد ان غرق مركبه الذى كان به وعاد به سالما الى البر .

وهكذا أرادت قدرة الخالق أن تجمع الشمل بعد طول الفرقة فيالها من ساعة سعيدة مباركة

ولم تمض بعد ذلك برهة حتى عرف فؤاد والده والوالد ولده وعلمت سوزان بالحقيقة وقد أخذت الدهشة منها كل مأخذ

صعد الجميع الى دارهم وقد آذنت الشمس بالمغيب وهم على ماهم عليه من غبطة وحبور .

وبذلك ختم هذا اليوم على هذه الاسرة بالسعادة وظللت الدار سحابة من الهناء . فهل يقول القارىء الآن شيئا عن مبلغ صحة نبؤة ذلك المنجم في هذه القصة بعد مضى هذه القرون السبعة وهل آن لمصر بعد اجتماع هذا الشمل أن تنفتح لها أبواب المجد بعد ذل وهوان داما عصور طويلة

هذا ما نتمناه وننتظره ونعمل له وأصبح باذن الله قريب التحقيق . . . .

النهاية